

جبل نفوسنة

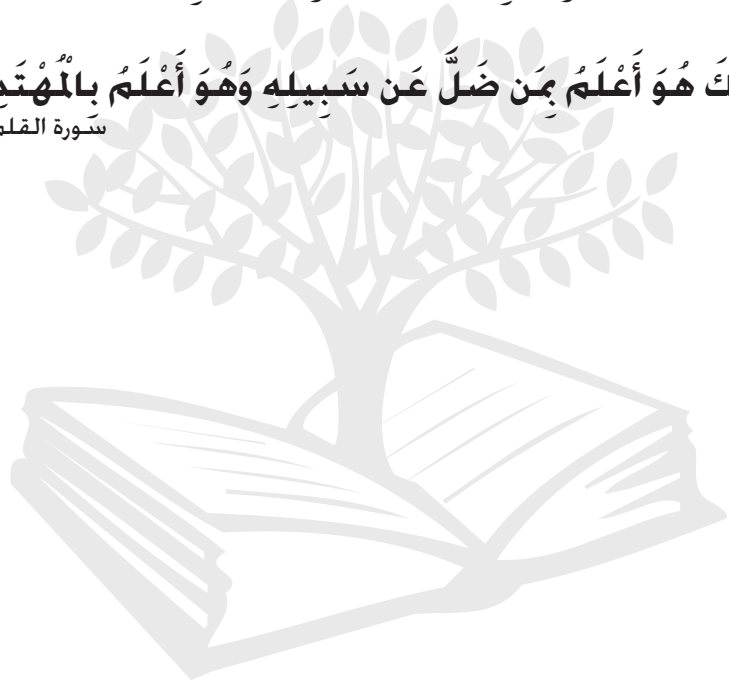
منذ إنتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب
(442-21 هـ) (642-1053 م)

تأليف الدكتور: مسعود مزهودي
(أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ، جامعة باتنة، الجزائر)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)
سورة القلم، آية 7



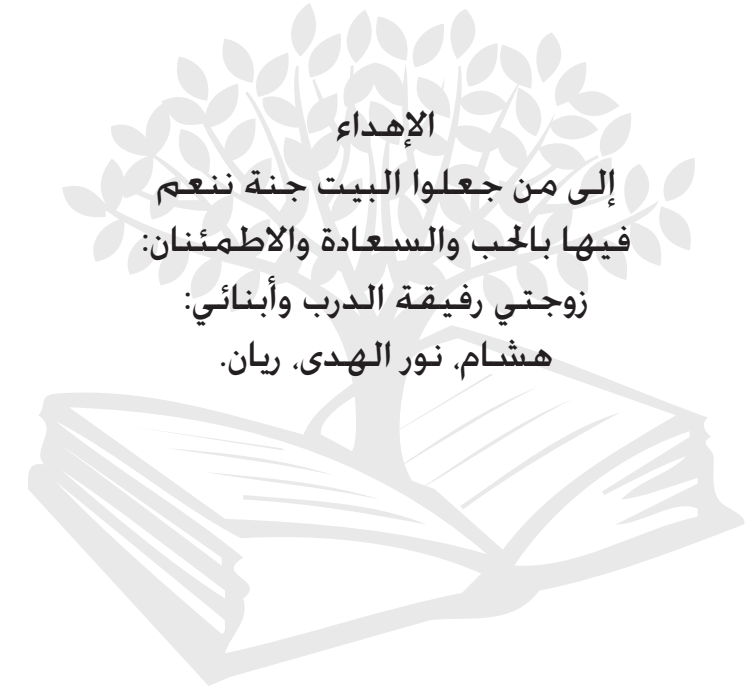
حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف
حقوق الطبع والنشر والتوزيع متاحة
لكل من يستطيع طباعة ونشر وتوزيع هذا الكتاب
مؤسسة تاوالت الثقافية 2003
<http://www.tawalt.com/>

مقدمة

يتناول موضوع هذا البحث تاريخ منطقة من المناطق التي انتشر فيها المذهب الإباضي. هذه المنطقة التي لعبت دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ المغرب خاصة. نظرا لموقعها الحساس الذي تقع فيه. فهي الرابطة بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

ونظرا لأهمية هذه المنطقة باعتبارها مركز عبور إلى مصر ومنها إلى الحجاز والشام والعراق ارتأينا أن نتناول هذه الدراسة «جبل نفوسة منذ الإنتشار الإسلامي حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21-442هـ) (642-1053م). هذا الجبل الذي كانت تستوطنه عدة قبائل أشهرها وأقواها على الإطلاق قبيلة نفوسة التي كان لها باع طويل في الحركة الإباضية. وخير دليل على فضلها في نشر المذهب الإباضي ما قاله الإمام عبد الوهاب: «إن هذا الدين - يقصد المذهب الإباضي- قد قام بسيف نفوسة وأموال مزاتة». ولذلك سمي الجبل - موضوع الدراسة - باسمها نظرا لقوتها عدة وعددا.

ونظرا للدور المميز الذي لعبته بعض القبائل في الأحداث السياسية مثل: زناتة، وكتامة، وصنهاجة، وغيرها... رأينا أن فهم هذه المرحلة الهامة من مراحل التاريخ المغربي يحتاج الى دراسة أهم قبائل البربر، فوقع اختيارنا على قبيلة نفوسة، والجبل الذي استوطنته ليكون موضوعا لهذا الكتاب. ويرجع اختيارنا لهذا الموضوع الى عدة أسباب منها رغبتنا في إماطة اللثام عن التاريخ الاباضي. هذا التاريخ الذي يحتاج إلى المزيد من الاهتمام نظرا لضخامة التراث الذي خلفه أتباع هذا المذهب والذي يكشف بين الحين والآخر عن مصادر مخطوطة جديدة تكشف عن حقائق أخرى. كما يهدف هذا البحث إلى إبراز العلاقة بين جبل نفوسة وبين الدولة الرستمية، هذه العلاقة التي كانت بين مد وجزر، فأتسمت أحيانا بالولاء للدولة، وأحيانا أخرى بمحاولة الانفصال وتأسيس دولة إباضية موازية، خاصة وأن الأئمة الرستميين - المتأخرين خصوصا - لم يحققوا طموحاتهم السياسية والمذهبية. كما نريد من خلال هذه الدراسة الكشف



الإهداء
إلى من جعلوا البيت جنة ناعم
فيها بالحب والسعادة والاطمئنان:
زوجتي رفيقة الدرب وأبنائي:
هشام، نور الهدى، ريان.

عن إسهامات النفوسيين في الحضارة المغربية الإسلامية؛ حيث كان الجبل رافدا من روافد الحركة العلمية والفكرية في بلاد المغرب. بالإضافة إلى تبيان أهمية الجبل ودوره في قوة الدولة الرستمية بشريا، وعلميا، واقتصاديا، ودوره في حمل مشعل الرسالة في نشر المذهب والحفاظ عليه، خاصة بعد سقوط إمامة الظهور في تيهرت.

أما المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة فيتراوح بين المنهج التحليلي الوصفي، وبين المنهج النقدي المقارن، خاصة وأن أغلب مصادرنا هي مصادر أباضية وهبية، والتي تتحامل في أغلب الأحيان على المخالفين من أتباع الفرق الإباضية الأخرى التي انشقت عن المذهب الأم.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة. فأما الباب الأول: فيتناول حول جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإباضية. تناول الفصل الأول منه جغرافية الجبل الطبيعية والبشرية فتطرق إلى موقعه الجغرافي وأهم القبائل التي كانت تستوطنه مع التركيز على أصولهم ومواطنهم. كما تناول أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي، وديانة النفوسيين، والفتح الإسلامي لهذه البلاد.

وأما الفصل الثاني: منه فتناول دخول المذهب الإباضي إلى الجبل، فتطرق إلى الدعاة الذين تمكنوا للمذهب الإباضي من الانتشار في هذه الربوع، وإلى المحاولات الأولى في تأسيس إمامة إباضية كإمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السَّمح المعافري وإمامة أبي حاتم الملزوزي ثم اختتم الفصل بالحديث عن موقف الخلافة العباسية من تلك الإمامتين.

وجاء الباب الثاني: ليتناول جبل نفوسة والحركة الإباضية منذ تأسيس الدولة الرستمية إلى غاية سقوطها (160-296هـ) أبرز الفصل الأول: منه الحياة السياسية والعسكرية والفكرية والعقائدية في الجبل؛ حيث أثار قضية تبعية الجبل للدولة الرستمية بعرض مختلف الآراء التي قيلت في هذا الموضوع، مع إبداء الرأي فيها ومناقشتها. ثم تطرق إلى الجانب العسكري، فتناول حصار طرابلس (196هـ/811م) والصراع الطولوني - الأغلبي وأثاره على الجبل، وموقعة مانو الشهيرة (283هـ/896م) مبينا خلفياتها، وأهدافها، ونتائجها. واختتم الفصل بالحديث عن الجانب الفكري، والعقائدي، وهو الجانب الذي أثار النزعات الاستقلالية في الجبل ممثلة في الحركة الخلفية والنفائية.

وأما الفصل الثاني: فقد خصص للحديث عن دور نفوسة ومكانتها في تيهرت، فأشار إلى دورها وموقفها من الأحداث الخطيرة التي شهدتها الدولة كدورها في حرب الواصلية، وموقفها من فتنة محمد بن عرفة وفتنة محمد بن رباح ومحمد بن حماد.

كما تناول هذا الفصل سعة نفوذ نفوسة في تعيين الأئمة وسيطرتها على المناصب الحساسة في الدولة كالقضاء والحسبة والإشراف على بيت المال.

أما الباب الثالث: فتمحور حول أوضاع الجبل في العهد الفاطمي، والزييري، فخصص الفصل الأول: منه للحديث عن الحياة السياسية، فتناول النظام السياسي في الجبل بعد سقوط الدولة الرستمية، والحروب الأهلية، والهجرات النفوسية إلى إفريقية، والمغرب الأوسط، ثم أبرز موقف النفوسيين من الدولة الفاطمية، وتناول كل الانتفاضات الإباضية كثورة طرابلس (300هـ) وثورة نفوسة (310هـ) وثورة النكارية (331هـ) وثورة الوهبة (358هـ).

وجاء الفصل الثاني: ليتناول العلاقات النفوسية - الزييرية. فتطرق في البداية إلى رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، واستخلافه لبلكين بن زيري على بلاد المغرب، وقيام الإمارة الزييرية ككيان مستقل عن الدولة الفاطمية في مصر. وتناول بالبحث علاقات إباضية الجبل بالإمارة، ثم أشار إلى فكرة الهجرة إلى «جغراف» التي رددتها المصادر الإباضية كثيرا، ومحاولة تقصي موقع هذا الموضوع من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر. واختتم الفصل بالحديث عن هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب.

وأما الباب الرابع: فخصص للحديث عن الحياة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية. تناول الفصل الأول: منه الحياة الاقتصادية في الجبل فتعرض للأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب بصفة عامة، ثم الزراعة، والثورة الحيوانية، والصناعة، والتجارة، والمكايل والموازين، فالعملة، والحسبة، ومستوى المعيشة. وجاء الفصل الثاني: ليدرس الحياة الفكرية، والاجتماعية، مبرزاً دور الأئمة الرستميين في النهضة العلمية في الدولة، وانعكاس ذلك على الجهة الشرقية منها. كما تناول الحلقات العلمية، والعلوم والعلماء، وحركة التأليف، والمكتبات، والعلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب. وفي الحياة الاجتماعية تناول نظام العزابة ومدى تطبيقه في الجبل، والتنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي، والمرأة دورها ومكانتها في الجبل.

وجاءت الخاتمة حصرا للنتائج التي توصل إليها الباحث من خلال الدراسة.

أما الصعوبات التي واجهتنا فتمثل في قلة المصادر مما أجبر الباحث على الاعتماد كلية على المصادر الإباضية، وحتى هذه المصادر فإنها تنقل عن بعضها البعض.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أوجه جزيل الشكر والتقدير لأستاذي الدكتور إبراهيم فخار الذي أفادني بملاحظاته وتوجيهاته القيمة، كما أوجه شكري الخاص إلى شيوخ

الإباضية بليبيا الذين حاولوا مساعدتي. كما أشكر جمعية حماية التراث بالقرارة على تشجيعاتها لي للمضي قدما في دراسة التاريخ الإباضي. وإني لأرجو بعد هذا كله أن أكون قد وفقت في إبراز دور الجبل في الحركة الإباضية.

والله من وراء القصد

الدكتور مسعود مزهودي

باتنة في 2003/9/12



المصادر والمراجع (عرض وتحليل)

1 - المصادر الإباضية:

على الرغم من أن أتباع المذهب الإباضي قد خلفوا لنا تراثا ضخما في مختلف فنون العلم، إلا أن التاريخ لم يحظ برعاية واهتمام المشائخ، ولذلك قلت المؤلفات في هذا الميدان. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الانتقال من إمامة الظهور إلى إمامة الكتمان جعلهم يهتمون بتأليف الكتب الفقهية حفاظا على استمرار مذهبهم وتراثهم الثقافي بصورة عامة. أما المصادر التاريخية التي وصلتنا فهي:

- الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية: للوالب بن سلام الإباضي الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). بتوزر ببلاد الجريد. وتعود أهمية هذا المصدر إلى كونه أول المؤلفات الإباضية في بلاد المغرب إن لم نقل أول مصدر تاريخي للمغرب الإسلامي. فقد كان معاصرا للدولة الرستمية، ولذلك كانت أغلب رواياته شفوية. ويبدو أن المخطوط الذي قام بنشره وحقيقه رق. شفارتز وسالم بن يعقوب غير مكتمل وغير مستبعد أنهما عثرا على قطع منه فقط. ولذلك غابت أخبار الأئمة الرستميين فيه. وقد استفدنا من هذا المصدر الهام في الحديث عن إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وإمامة أبي حاتم المزوزي. كما أفادنا بمعلومات هامة عن بعض رجال نفوسة، كعمر بن يمكتن أول معلم للقرآن في جبل نفوسة، وأهم ما يميز هذا المصدر عن غيره من المصادر هو أنه عدد لنا فقهاء وعلماء الإباضية الذين كانوا يقيمون في إفريقية خاصة في مدينة القيروان وأحوازها. كما استفدنا منه في الحديث عن علاقات إباضية المغرب، بإباضية المشرق، حيث أورد لنا نص الرسالة التي بعث بها أبو عيسى إبراهيم إسماعيل الخراساني - أحد الإباضية المشاركة - إلى أهل المغرب، والتي يبدي فيها رأيه في الخلاف الذي نشب بين أهل الدعوة في جبل نفوسة حول تعيين خلف بن السمح واليا على الجبل، ويقدم فيها النصائح لإخوانه المغاربة.

- كتاب السيرة وأخبار الأئمة: لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني. عاش هذا الأخير في مدينة وارجلان. ثم غادرها إلى مدينة «تاملسنت» - الواقعة جنوب شرق إفريقية - للالتحاق بحلقة شيخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، صاحب كتاب

السير. وقبيل وفاته عاد إلى بلاد أريغ بالمغرب الأوسط وسكن قرية «تين وال». ثم عاد في الأخير إلى مدينة وارجلان واستقر بها إلى أن وافته المنية. ويرجح أن يكون قد توفي بعد سنة 474هـ وهو آخر تاريخ ورد ذكره في سيره. وقد اعتمد على روايات شيوخه أبي الربيع (ت471هـ). ويعد كتاب السيرة من أهم المصادر التي تناولت أحداث الدولة الرستمية. ولا يستطيع باحث الاستغناء عنه نظرا لأهمية الفترة التي عاصرها المؤرخ. بالإضافة إلى أنه تنقل بين العديد من المواطن الإباضية مما أدى إلى تعدد مصادره. وقد استفاد منه الباحث في مختلف فصول البحث، خاصة وأنه زدنا بتفاصيل عن الحركة الخلفية، والنفاثية، والنكارية. كما أسهب في الحديث عن محاربة الواسلية، والدور الذي لعبه النفوسيون في ذلك، وأفاض في الحديث عن حصار طرابلس، وزيارة الإمام عبد الوهاب إلى الجبل، وعن موقعة مانو، وثورة الوهبة، كما أبرز العلاقات بين أهل الدعوة والفاطميين، وأهل المذهب، وبني زيري. كما اشتمل على كثير من الأخبار المتفرقة منها: فكرة الهجرة إلى «جوغراف»، وسير العزابة، وتنقلاتهم، والحلقات العلمية. كما زدنا بمعلومات وافية عن بعض الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الجبل.

- **طبقات المشائخ في المغرب:** لأبي العباس أحمد بن سعيد بن علي بن خلف الدرجيني، عاش بمنطقة درجين ببلاد الجريد جنوب إفريقيا، وإليها ينسب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) إذ توفي حوالي سنة 670هـ. وقد ألف طبقاته بناء على طلب إباضية المشرق رغبة منهم في الاطلاع على سير إخوانهم ببلاد المغرب. وقد استفاد الدرجيني كثيرا من سير أبي زكريا حتى إنه كان ينقل عنه دون إضافة خاصة في الجزء الأول. أما الجزء الثاني فقد اعتمد فيه على سير الوسياني، وقسمه إلى اثنتي عشرة طبقة كل طبقة تغطي فترة خمسين سنة. وجاء عبارة عن تراجم لشيوخ المذهب، مع التركيز على آرائهم خاصة في الأمور الفقهية. ورغم ذلك فقد أفادنا بمعلومات تاريخية، واقتصادية. وقد استفاد الباحث من هذه الموسوعة استفادة عظيمة في مختلف أبواب البحث. فقد زدنا بتفاصيل دقيقة عن شيوخ المذهب، وعلمائه، خاصة النفوسيون منهم. كما استفدنا من الأخبار الاقتصادية العارضة التي ورد ذكرها في طبقاته.

- **السير:** لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني. نشأ في بلاد الجريد وعاش سنوات في مدينة وارجلان. صنّفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية عشر (550-600هـ) ووصفه بقوله: «أحد شيوخ الحلق الكبار، الحافظ للسير والأثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الأعصار». وقد اعتمد الباحث على النسخة المخطوطة، خاصة الجزء الثاني منها، كما اعتمد على القطعة المطبوعة.

التي قام بنشرها وتحقيقتها الأستاذ إسماعيل العربي. وما يمكن ملاحظته أن الوسياني خالف الدرجيني في طريقة كتابه فلم يقسمه إلى طبقات وإنما ترجم لكل شيخ من الشيوخ على حده. ثم أورد لكل منطقة عنوان أورد تحته الأخبار الخاصة بها. أفادنا هذا المصدر بتراجم المشائخ الإباضية في بلاد المغرب. كما أفادنا بإسهابه في الحديث عن الحياة الثقافية، والاجتماعية، في التجمعات الإباضية، وعلاقة الإباضية بإخوانهم في المغرب، والمشرق، وحركة التجارة، والأسواق، والسلع الواردة، والصادرة. ولعل أهم وثيقة أوردتها الوسياني هي نص الرسالة التي أرسلها الإمام عبد الوهاب إلى نفوسة الجبل، والتي بين فيها حدود الإقطاع الذي أقطعه للمهاجرين من نفوسة إلى الساحل بإفريقية. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن جبل نفوسة قد حظي باهتماماته. فمن أهم المعلومات التي أوردتها تعدده للقرى النفوسية التي لا نجد لها ذكرا في المصادر الجغرافية. كما أفادنا بمعلومات وافية عن علاقات النفوسيين ببني زيري، فحدثنا عن حصار بني زيري للجبل، وعن موقعة الأبراج، وعن جباية الضرائب وغيرها.

- **سير نفوسة:** لمقرين بن محمد البغطوري. عاش هذا الأخير في القرن السادس الهجري (12م) وقد انتهى من تأليف كتابه سنة 599هـ في قرية «إجناون» بالجبل. ويعد هذا المصدر من المصادر المخصصة للحديث عن نفوسة الجبل. وقد اعتمد عليه الشماخي كثيرا، إذ تردد ذكره في مختلف صفحات سيره، وعلى الرغم من أن النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها من المكتبة البارونية بجزيرة (تونس)، رديئة وصعبة القراءة إلا أن الباحث استفاد منه في مختلف فصول البحث. فقد زدنا بتراجم عن ولاة الجبل، وبمعلومات عن اليهود في جادو، وعن انتفاضة نفوسة أيام الفاطميين (310هـ).

- **الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات:** لأبي القاسم محمد بن إبراهيم البرادي، المتوفى في القرن الثامن الهجري (14م). ألف كتابه ليكمل النقص الذي ورد في طبقات المشائخ للدرجيني. وقد استفاد منه الباحث في الحديث عن نظام الحلقة، وفي الحديث عن مؤلفات المغاربة، إذ أحصى ما ألفه شيوخ المذهب في مختلف فنون العلم.

- **السير:** لأبي العباس بدر الدين أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي المتوفى سنة 928هـ. وهو من نفوسة الجبل. جمع سير أبي زكريا وأبي الربيع المزاتي، وسير الوسياني، وطبقات الدرجيني، وسير البغطوري، وجواهر البرادي، في مؤلف واحد. فجاء سفره عبارة عن موسوعة تاريخية شاملة لأهل الدعوة ببلاد المغرب، وقد استفاد كذلك من مؤرخين غير إباضية كالرفيق القيرواني، وابن الصغير المالكي، والمسعودي. وبما أن الشماخي نفوسي فقد حظي الجبل باهتمام خاص لديه، ولذلك فقد أورد معلومات

وافية وغزيرة عن الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الجبل، وعن الحلقات العلمية، وعن الأحداث السياسية الساخنة التي مر بها الجبل، كإسهابه في الحديث عن الخلفية، والنفاثية، والصراع القبلي، والحروب الأهلية، كما أورد أسماء ومواقع العديد من القرى النفوسية، ومسالك الجبل، كما زدنا بمعلومات وافية عن حركة التجارة، وعن الحركة الثقافية، ولا نبالغ إذا قلنا إن سير الشماخي هي المصدر الأول الذي اعتمد عليه الباحث.

وإلى جانب هذه المصادر الأساسية هناك مصادر أخرى استفدنا منها جزئياً في هذا البحث مثل: «الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف» لأبي عمار عبد الكافي (ت ق 6هـ/12م)، و«عقيدة التوحيد» لأبي زكريا يحيى الجناوني (ت ق 5هـ/11م)، وكتاب «مسائل نفوسة» للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت 211هـ)، وكتاب «فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق» لأبي عمرو عثمان بن خليفة المارغني (ت أواخر ق 6هـ/12م)، وكتاب «السير» لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ)، و«سير الحلقة» لأبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي (345-440هـ)، وكتاب «الدليل والبرهان» لأبي يعقوب يوسف إبراهيم السدراتي الوارجلاني (ت 570هـ).

2 - المصادر غير الإباضية:

تعد هذه المصادر مصادر ثانوية بالنسبة لهذا البحث، وذلك يعود إلى كونها لم تتعرض لتاريخ الجماعات الإباضية، اللهم إلا إذا قاموا بثورات ضد الدول المعادية لهم، ويمكن حصر المصادر فيما يلي:

- **فتوح إفريقية والأندلس:** لعبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم (187-257هـ) (803-871م)، يعتبر هذا المصدر من أقدم المصادر العربية التي أرخت للفتح العربي في بلاد المغرب، وقد ألفه كتكملة لفتح مصر، وقد استفدنا من هذا المصدر في تناول الفتح الإسلامي لبرقة وطرابلس وإفريقية.

- **أخبار الأئمة الرستميين:** لابن الصغير المالكي (ق 3هـ/9م)، يعد ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، فقد كان من سكان تاهرت، اشتغل بالتجارة حيث كان له دكان في سوق الرهادنة يمارس فيه نشاطه، وقد تناول في كتابه تاريخ الأئمة الرستميين في تاهرت، ولم يتحدث عن أخبار الدولة خارج تيهرت، ولذلك فإن أخبار جبل نفوسة قليلة إن لم نقل منعدمة، وهناك العديد من الأحداث السياسية والعسكرية التي لم يعطها حقها من الدراسة، كحصار الإمام عبد الوهاب لمدينة طرابلس، ومشاركة نفوسة في حرب الواصلية، وموقعة مانو 283هـ، وعلى الرغم من ذلك فقد زدنا ابن الصغير بمعلومات

وافية عن نفوذ الجالية النفوسية في تاهرت، واحتكارها للمناصب السامية خاصة القضاء، والحسبة، وبيت المال، بالإضافة إلى تدخلها المباشر في تعيين الأئمة دون الرجوع إلى رأي العامة، كما أفادنا كثيراً في تناول موقف نفوسة من الفتن الداخلية، كفتنة محمد بن عرفة، وفتنة محمد بن رباح، ومحمد بن حماد.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** لابن عذارى المراكشي (توفي بعد سنة 721هـ/1321م)، يأتي هذا المصدر بعد ابن خلدون من حيث الأهمية التاريخية، ورغم ذلك فهو لا يؤرخ للإباضية عامة، وأفرد صفحات قليلة للحديث عن أئمة تاهرت، وقد أفادنا المصدر في تحديد أصول بعض قبائل البربر، وفي فتح مدينة سبرت (صبراتة)، وفتح عمرو بن العاص للجبل، كما زدنا بمعلومات وافية عن الصراع بين عبد الرحمن بن حبيب وبين أخيه إلياس، وعن حصار طنبنة، والقيروان، من قبل أبي حاتم الملوذي وحلفائه، كما أفادنا بمعلومات عن حملة العباس بن أحمد بن طولون سنة 269هـ (882م) وقتال نفوسة له بقيادة أبي منصور إلياس، كما تناول الدعوة الشيعية وجأحها في بلاد المغرب، وتحدث عن حال تاهرت بعد سقوط الدولة الرستمية، وعن الانتفاضات الإباضية في إقليم طرابلس، وعن العلاقات الزيرية الفاطمية وما ترتب عنها من قطع المعز بن باديس للخطبة للفاطميين في بلاد المغرب، وعلى العموم فقد استفدنا من هذا المصدر استفادة كبيرة على الرغم من أن أخبار الإباضية جاءت مقتضبة فيه.

- **كتاب العبير:** لعبد الرحمن بن خلدون (توفي سنة 1406/808م)، يتفق جل المؤرخين على أن كتاب العبير يعد المصدر الأول الذي يجب الاعتماد عليه في دراسة تاريخ المغرب الإسلامي، باعتباره موسوعة تاريخية شاملة، وعلى الرغم من ذلك فإن ابن خلدون جاهل الإباضية تماماً، حتى إن تناوله للدولة الرستمية جاء موزعاً بين صفحات كتابه، ولم يفرد لها باباً مثل بقية الدول، وحتى فيما كتبه عن النكارية جاء ملخصاً، عكس بعض المصادر المشرقية التي أسهبت في الحديث عنها، ومهما يكن من أمر فقد أفادنا ابن خلدون في دراسة أصول القبائل ومواطنها وعدد لنا القبائل التي أخذت بالمذهب الإباضي، والثورات التي قامت بها، كما أفادنا في الحديث عن حملة العباس أحمد بن طولون، وعن مشاركة نفوسة في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى، وعن الصراع بين زناتة وصنهاجة في إقليم طرابلس، وعن العلاقات بين الإمارة الزيرية والخلافة الفاطمية.

- **صفة المغرب:** لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت 284هـ)، يعد هذا المصدر من المصادر الجغرافية المهمة؛ إذ كان معاصراً للفترة التي نؤرخ لها، أضف إلى ذلك أنه

زار المنطقة. وقدم لنا معلومات وافية ودقيقة عن المدن. وعن المسالك. ومراحلها. وعن الموانئ. وعن مواطن القبائل. وحدود تلك المواطن. خاصة مواطن نفوسة. وعلى العموم فإن وصفه لمدن إفريقية والمغرب الأوسط كان مفيدا للبحث في باب الرابع.

- **صورة الأرض:** لابن حوقل (توفي في القرن الرابع الهجري/ 10م). إن أهم ما يميز هذا المصدر أن صاحبه عاش في عصر الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. وقد أفادنا كثيرا في دراسة الحياة الاقتصادية في هذه الفترة. حيث زدنا بمعلومات دقيقة عن المحاصيل الزراعية. وعن التجارة في كل مدينة. ثم أعقبها بذكر المسافات من برقة إلى البحر المحيط. وقد أفادنا كذلك في حديثه عن جبل نفوسة. حيث زدنا بمعلومات عن منتجاته الغذائية. كما أشار إلى دخول المذهب الإباضي إلى هذه الربوع. كما زدنا بمعلومات دقيقة عن تجارة السودان. وعن المعاملات التجارية.

- **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب:** لأبي عبد الله البكري (ت 487هـ). يعد هذا المصدر من المصادر الجغرافية القيمة. خاصة وأنه قريب من فترة البحث. بالإضافة إلى اهتمامه الدقيق بوصف المسالك التجارية. وتحديد مسافاتها ومراحلها. وحركة التجارة. والسلع الصادرة. والواردة. والأسعار. والمكايل والموازين. وقد أفادنا بوصفه الدقيق للمدن المغربية. والسودانية على حد سواء.

- **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس:** المقتبس من كتاب نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي (المتوفي سنة 564هـ). أفادنا هذا المصدر هو الآخر في دراسة الطرق التجارية. والنشاط التجاري في بلاد المغرب. كما زدنا بمعلومات وافية عن حجم المبادلات التجارية بين مدن المغرب. وبلاد السودان. وقد انفرد الإدريسي بمعلومات قلما نجدها في مصادر أخرى: كذكره بان أهل وارجلان كانوا يضربون الدنانير باسم بلادهم. وقد استفدنا منه كثيرا في تحديد مراحل المسالك بين جبل نفوسة وبين مدن إفريقية. ومدن المغرب الأوسط. كما أفادنا وصفه لمدينة شروس ومنتجاتها الغذائية. وعلى العموم فالكتاب حافل بمعلومات قيمة استقاها من مشاهداته ومن مصادر أخرى.

- **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار:** لمؤلف مجهول (توفي في القرن 6هـ). اشتمل هذا المصدر على معلومات وافية في التاريخ. والآثار. والعمران. والجغرافية. وقد ذكر المؤلف مشاهداته في الرحلات والأسفار التي قام بها. وبما أنه مراكشي. فقد جاء القسم الذي تناول فيه مدن المغرب غنيا بالمعلومات الدقيقة عن أحوال المدن ومنتجاتها. وأسواقها. وعلى الرغم من أن المؤلف كان معاصرا للموحدين إلا أننا استفدنا منه في

وصف مدينة شروس. وقد انفرد بذكر بعض عقائد سكانها الغربية عن المذهب الإباضي. كما ذكر لنا مراحل الطريق بين الجبل وبعض المدن المجاورة. ومجمل القول فقد أفادنا المصدر في مختلف عناصر الفصل الأول من الباب الرابع.

وبالإضافة إلى هذه المصادر فقد استفدنا من المصادر الجغرافية الأخرى مثل: كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي (ت 388هـ). وكتاب «الجغرافية» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (المتوفي في أواسط القرن 6هـ). و«معجم البلدان» لأبي عبد الله ياقوت الحموي (575-625هـ). وكتاب «الجغرافية» لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685هـ).

3 - المراجع الحديثة:

اعتمد الباحث على مجموعة كبيرة من المراجع الحديثة المتنوعة العربية منها. والأجنبية. ولعل أهم هذه المراجع هي ما كتبه الشيخ علي يحي معمر (رحمه الله) في سلسلة كتبه «الإباضية في موكب التاريخ». وعلى الرغم من أنه كان متعاطفا إلى حد بعيد مع إخوانه الإباضية. مما جعله يبتعد في بعض الأحيان عن الموضوعية. إلا أن استفادتنا منه كانت كبيرة. خاصة في وصفه للمدن. والقرى في الجبل وصفا دقيقا. مع تزويده لنا بمعلومات غزيرة عن علماء وشيوخ كل مدينة. وقرية. كما أن الباحث اعتمد على ما كتبه المستشرق البولوني تادايوش ليفيتسكي (Tadeusz Lewicki) المختص في التاريخ الإباضي: حيث ألف العديد من الدراسات في هذا الموضوع باللغة الفرنسية. والإنجليزية. وقد زدنا بها أثناء لقائنا معه في جامعة كراكوفا ببولندا سنة 1986. ولا نبالغ إذا قلنا بأن أبحاثه أنارت لنا الطريق ويسرت لنا العديد من العضلات. كما استفاد الباحث من مؤلفات الأسرة البارونية مثل: سليمان بن عبد الله الباروني. وعبد الله بن يحي الباروني. كما أفادتنا مجموعة من الكتب التي تناولت الدولة الرستمية مثل كتاب: الدولة الرستمية. دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية» للأخ الفاضل الدكتور بحاز إبراهيم بكير. وكتاب «العلاقات الخارجية للدولة الرستمية» للأستاذ جودت عبد الكريم يوسف. وكتاب «الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي» للأستاذ الدكتور محمد عيسى الحريري.

هذه عينة من أهم المراجع التي اعتمدها الباحث في هذه الدراسة وهناك مراجع كثيرة ترد ذكرها في فصول هذا البحث.

الباب الأول

جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإباضية

الفصل الأول

جبل نفوسة (البلاد والسكان)

1 - الموقع الجغرافي

2 - السكان (أصولهم ومواطنهم)

أ - نفوسة

ب - هوارة

ج - لواتة

د - مزاتة

هـ - سدراتة

و - لماية

ز - زناتة

د - زواغة

3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي

4 - الديانة

5 - الفتح الإسلامي

1 - الموقع الجغرافي:

يمتد جبل نفوسة على شكل قوس أو هلال. وهو امتداد لجبال أطلس المعروفة بجبال «درن» في المغرب الأقصى، من بحر الظلمات، مروراً بكل من المغرب الأقصى، والأوسط، والأدنى إلى أن تصل وتلتحم بجبال «قماطة»، وهي الهضاب التي تسمى «النقازة» غربي مدينة الخمس الليبية الحالية¹. ويحيط الجبل بمنطقة طرابلس الساحلية كالهلال حيث يفصل بينها وبين الصحراء في فزان. ولذلك تسمى الأقاليم الساحلية من طرابلس بـ «الجفارة»، والأقاليم الداخلية المرتفعة بـ «الجبل». والهضبة القاسية التي تنحدر بالتدرج نحو الصحراء بـ «الظهر»².

وقد تسبب موضع جبل نفوسة بهذا الشكل في ضيق إقليم طرابلس حتى أن الرحالة والجغرافيين المسلمين لم يجعلوه كيانا خاصا، بل عدوا مدينة طرابلس أول مدينة إفريقية. كما تسبب في سهولة اتصال إقليم فزان ببرقة وتونس والجزائر أكثر من اتصاله بطرابلس³. ويبلغ طول الجبل حوالي مائتي كيلومتر، ويلتقي في جزئه المركزي بسلسلة جبلية أخرى تصل سفوحها إلى مدينتي قابس، وليبتيس⁴، ويقع قبلة طرابلس على ثلاث مراحل⁵ أو ست مراحل⁶ ويبلغ من الطول سبع مراحل يتصل به من الشرق جبل مسلاتة⁷.

ويبعد عن مدينة سفاقس بتسع مراحل، وعن قسنطينة بست مراحل، وعن جبل

1 - أحمد الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)، ص71.

T. Lewiki: Les Noms berbères employés chez les Nafusa médiévaux (VIII-XVI) Folia Orientalia Varsovie, 197273-, Tome 14, p05.

2 - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، دار بورسعيد للطباعة، الإسكندرية، 1979، ج1، ص66.
عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، دراسات اجتماعية وأثروبولوجية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1969، ص18. كذا عند المؤلف «الظهر» والأصح هو تسميتها بـ ظاهر، كما هو متعارف عليه عند أهالي نفوسة.

3 - سعد زغلول، المرجع نفسه، ج1 ص67.

4 - Jean Despois: Le Djebel Nafusa, étude géographique, édition, Larousse, Paris, 1935, p1.

5 - ابن خلدون: العبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968، مج6، ص290.

6 - الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص199.

7 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص290؛ أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مطابع دار الغندور، بيروت (د. ت)، ص68.

دمر بثلاث مراحل⁸، وعن غدامس بمسيرة سبعة أيام في الصحراء⁹، وعن قفصة بنحو ستة أيام، ويتصل بجبل «درن»¹⁰.

كان جبل نفوسة في القديم يمتد حتى جبال «نالوت»، في «تغرمين» وهي قرية أهلة تقع في منطقة الزنتان، وآخر حد جغرافي له هو مدينة القلعة، يرتفع من الشرق إلى الغرب حيث يبلغ ارتفاعه في نالوت 650م، وكباو 640م، وب «قيقيلة» 740م، وجادو 659م، ويفرن 715م، وككلة 805م، ويبلغ انحداره في السفح 320م في «دهيات» و342م في الجوش، وتبلغ مساحته إجمالاً حوالي أربعة آلاف كيلومتر مربع، ويبلغ عمقه حوالي عشرين كيلومتراً¹¹.

ويرى ليفيسكي أن الجبل يشمل مدن «نالوت»، و«فساطو»، و«يفرن»، وتشكل كل من: «غريان»، و«ترهونة»، و«مسلاتة»، الجزء الشرقي منه، في حين أنه كان في العصور الوسطى يضم «نالوت»، و«فساطو» فقط، أما منطقة «يفرن» فإنها تمثل حيزاً خاصاً. وإذا سايرنا رواية «الشماخي» فإن حيز قبيلة نفوسة كان يشمل كل المنطقة الممتدة من «نالوت» في الغرب، إلى مدينة «تغرمين» في الشرق، ويبدو أن هذا التحديد - يضيف ليفيتسكي - غير مكتمل، لأننا نلاحظ أن مدينة «وازن» الواقعة غرب «نالوت» قرب الحدود الطرابلسية - التونسية كانت في العصور الوسطى تدخل ضمن الإطار الجغرافي للجبل¹².

ويمتاز جبل نفوسة بتكامل طبيعي، واقتصادي، بين الجفارة، والظهر، والجبل، فالجفارة هي ذلك السهل الفسيح الذي يحيط به من الجهة الشمالية، ويمتد إلى غاية البحر الأبيض المتوسط، أما الظهر فهو عبارة عن مرتفعات صعبة المسالك، ووديان مفتوحة متعددة، وهي الوديان التي أقام النفوسيون حولها أغلب قراهم، وجنانهم، ونظراً لتنوع البيئة الجغرافية نلاحظ تعدداً في الأنشطة الاقتصادية، ذلك أن منطقة «الجفارة» عرفت بزراعة الحبوب، في حين قامت الزراعة في الجبل على الأشجار المثمرة خاصة أشجار الزيتون، أما الظهر فتنمو فيه الأعشاب الصالحة لتربية الأغنام والإبل¹³.

8 - الإدريسي: المصدر السابق، ص 199-200.

9 - مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 145.

10 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص 18.

11 - عبد الجليل الطاهر: المرجع نفسه، ص 21.

12 - T. Lewicki, La répartition géographique des groupements Ibadite dans l'Afrique du nord au moyen age, Rocznik Orientalistyczny, 1957, T 12, p332.

13 - عبد الجليل الطاهر: المرجع السابق، ص 18.

وقد أثرت طبيعة الجبل على توزيع السكان خاصة وأن المجتمع النفوسي مجتمع يعتمد على الزراعة، وبما أن كمية الأمطار في الشرق تفوق عن الغرب، فإن عدد السكان في الجهة الشرقية، يتجاوز بكثير عددهم في المنطقة الغربية، خاصة وأن الأراضي الشرقية تمتاز بخصوبتها وصلاحيتها للزراعة¹⁴.

وتتناثر المدن والقرى في الجبل حول مصادر المياه خاصة الوديان، فعلى ضفة وادي «لالوت» تقع مدينة «تيغيت» التي تعرف حالياً باسم «أولاد محمود»، وإلى الشمال من «لالوت» وعلى بعد عشرين كيلومتراً تقع بلدة «تاغرويت» المشهورة بعيونها وغزارة مياهها، وإلى الجنوب منها تقع قرية «تكوت» المعروفة بكثرة نخيلها، وإلى الشرق من «تيغيت» تنتشر مجموعة من القرى أشهرها قديماً قرية «تالات»، ومنها إلى بلدة تسمى «تيركت»¹⁵.

أما «وادي إكرّين»: فهو واد عميق، ينحدر من الجنوب إلى الشمال، ثم يتفرع إلى فرعين عند عين جارية تسمى «عين الثرارة» بالقرب من مدينة «كباو»، وتقع على ضفافه مجموعة من القرى، والمدن، مثل: مدينة «إبناين»، و«القلعة» و«تلات»، و«بودير»، و«تململ»، وغير بعيد عن هذه القرى تقع مدينة «تمزين»، ومعناها «مدينة الشعير»¹⁶.

وإلى الشرق من «كباو» تقع بلدة «فرسطا»، التي ينتسب إليها العديد من مشاهير العلماء النفوسيين، وفي شمالها تقع بلدة «قنطارة» المسماة حالياً بـ «تيجي»، وعلى ضفاف وادي شروس تقع أهم حواضر الجبل وهي مدينة «شروس»، التي تسمى الوادي باسمها، وهي مدينة اشتهرت بمياهها الجارية، وكرومها وأغابها¹⁷، وتقع على الضفة الشرقية لهذا الوادي بلدة «الجزيرة»، وإلى الغرب منها نجد مجموعة من القرى المشهورة في الجبل مثل: «دركل»، «بغطورة»، «دجي»، «تنزغت»، و«جرجن»، و«ويغو»، و«تمنكرت»، و«زعرارة»، وغيرها¹⁸، وغير بعيد عن «ويغو» تقع مدينة «تندميرة» التي ينتسب إليها أبو منصور إلياس التندميري - الذي تولى رئاسة الجبل في إمامة أبي اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (261 - 281هـ) (874 - 894م) - وإلى الغرب من هذه المدينة تقع مدينة «تملوشايت»¹⁹.

14 - نفسه، ص 19.

15 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط 1، القاهرة، 1964، ص 173.

16 - المرجع نفسه، ص 178.

17 - ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت)، ص 92.

18 - معمر: المرجع السابق، ص 184.

19 - R. Basset: les sanctuaires du djebel Nafusa, les cahiers de Tunisie, Tunis, 1981, T 29, N° 115116-, p383, T. kwicki: Tasmiya Suyuks Nafusa Wa Qurahum, Rocznik Orientalistyczny Varsovie, 1961, T

أ - نفوسة:

صنف المؤرخون قبيلة نفوسة ضمن البربر البتر. وذكروا أن جددهم الأول هو «مادغيس». وتشعبت من ابنه «زحيك» بطون عديدة، فقد ترك هذا الأخير أربعة أبناء هم: «نفوس»، «أداس»، «ضرا»، «لوا». وإلى نفوس تنتسب قبيلة نفوسة، فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها. وكانوا من أكبر قبائل البربر، فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور، وبني مكسور، ومامطوسة. وكانت مدينة «صبرة» قبل الفتح الإسلامي ضمن مواطنهم²⁵. فأما بنو زمور فقد كان لهم حصن منيع يسمى: «تيرقت» (تيركت). جاورهم قبيلة «بني تدرميت» التي تملك هي الأخرى ثلاثة حصون قرب مدينة «جادو»،²⁶ وغير بعيد عن مدينة «جادو» وعلى الطريق الذي يربط «أدرف» بقرية ميري - موطن بني زمور - توجد قرية «مامطوس»، والتي تعود تسميتها إلى قبيلة ماطوسة النفوسية²⁷. كما جُد قرية تسمى «تين مسكورة»، وربما تعود تسميتها إلى «بني مسكورة»، إحدى فروع نفوسة²⁸. وهي القبيلة التي ذكرها ابن خلدون باسم «بني مكسور»²⁹ وقد شكك ليفيسكي في أن هذا البطن من نفوسة لأن له ما يشابهه ضمن بطون زناتة وهم بني مصكورين³⁰. ويبدو أن القرية المسماة «مصغورة» الواقعة في الجزء الشرقي من الجبل أخذت اسمها من قبيلة «بني مسكور» هذه³¹. كما أن قبيلة «أمسنان» هي فرع من نفوسة، وهناك بلدة تسمى «نفوسة أمسنان»، لا يعرف موقعها ولكن يبدو أنها تقع في بلاد الجريد ولا تبعد كثيرا عن مدينة «تقيوس»، و«قنطرار»³².

ومهما يكن من أمر فإن هناك من يرى بأن نفوسة سميت بهذا الاسم لأن أفرادها أسلموا بنفوسهم، وأذعنوا للإسلام من تلقاء أنفسهم دون داعي قاهر³³. والحقيقة أن القبيلة معروفة ومشهورة بهذا الاسم قبل قدوم الفاتحين العرب.

25 - ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 230.

26 - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعه دي سلان، الجزائر، 1957، ص 7.

T. Lewicki, La répartition géographique, p335.

27 - ibid, p335.

28 - ibid, p334.

29 - ينظر: كتاب العبر، مج 6، ص 230.

30 - T. Lewicki, op, cit, p334.

31 - T. Lewicki, Du Nouveau Sur La Liste Des Tribus Berberes D>ibn Hawkal, Folia orientalia 1971, T 13. p182.

32 - Ibid, p185.

33 - محمد بن يوسف أطفيش: رسالة شافية في تاريخ وادي ميزاب، مخطوط بمكتبة القطب، غرداية (الجزائر)، ص 11.

وتقع على وادي «أمسين»، ووادي «جلازن». مجموعة من القرى منها «فساطو». وعلى ضفاف وادي الزرقاء تقع «الجماري»، و«تيندباس»، و«مزغورة»، و«ويفات»، و«توكيت» المعروفة كذلك باسم «تمزدة»، وقرية «إرجان». وإلى الشمال من هذه الأخيرة تقع مدينة «جادو»، أم قرى الجبل ومركز الرئاسة فيه. وتقع في أرباضها قرى عديدة منها: «إجنان»، و«تموقط»، و«طرميسة»²⁰.

وعلى ضفاف وادي الآخرة الذي ينحدر هو الآخر من الجنوب إلى الشمال تنتشر مجموعة من القرى مثل: «تاردية»، و«سنتوت»، و«ميري»، و«أدرف»، و«تغرمين»²¹.

وما سبق، يتضح بأن البيئة الجغرافية كان لها دور كبير في التوزيع السكاني، وأن حياة السكان ارتبطت بمجاري الوديان.

2 - السكان (أصولهم ومواطنهم):

إنه ليس من السهل بمكان أن نعرف بدقة القبائل التي كانت تتخذ الجبل موطننا؛ ذلك أن المصادر التاريخية أو الجغرافية التي تحدثت عنه تذكر دائما «نفوسة»، فقوتها وتعدادها جعلها أخبارها تطغى على بقية القبائل، إضافة إلى ذلك عدم الاستقرار الذي عرفته بلاد المغرب قبل الفتح وبعده جعل القبائل في حركات مد وجزر ما يصعب وضع خريطة جغرافية لمواطن القبائل وتتبعها. فنفوسة نفسها انتشرت في العديد من المناطق مثل: بلاد الجريد، وتونس، والقيروان، وتاهرت، وأريغ، بل هاجرت حتى إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، إذا صحت رواية اليعقوبي²². ولا تختلف عنها هواره، ولواتة، هذه الأخيرة كانت ضمن القبائل التي انضمت إلى إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى مثلها مثل قبيلة زواغة، وغيثة، ونفزة...²³ ويؤكد ذلك ابن عبد الحكم في قوله: «فتفرقوا هناك (أي البربر) فتقدمت زناتة، ومغيلة، إلى المغرب وسكنوا الجبال. وتقدمت لواتة فسكنت أرض أنطابلس - وهي برقة - وتفرقت في هذا المغرب، وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس. ونزلت هواره مدينة لبدية، ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرت، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك»²⁴. ويمكن أن نعد القبائل التي استوطنت الجبل كما يلي:

25, p103.

20 - معمر: المرجع السابق، ص 193-202.

21 - نفسه: ص 211-213.

22 - ينظر: تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960، ج 1، ص 154.

23 - ابن خلدون: كتاب العبر، مج 7، ص 24.

24 - ينظر: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص 28.

واد يسمى «وادي هواره»⁴⁰. كما تواجدت في جبل وانشريس ولبدة⁴¹ وتيجيس⁴² وأجلو قرب واد آسوف⁴³ وبالمسيلة⁴⁴ وغيرها.

ج - لواتة:

هي إحدى بطون البربر تنسب إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك. ولوا الأصغر هو نفازو ولوا هو اسم أبيهم. ولا يستبعد أن يكون العديد من الهواريين قد اتخذوا جبل نفوسة موطنًا لهم، خاصة ونحن نعلم أنه لا يبعد كثيرًا عن طرابلس وعن موطن هواره الأولى. فابن خلدون يقول: «ويتصل به شرقًا (أي جبل دمر) جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة من نفوسة، ومغراوة، وسدراتة، ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة، ويعتمره قبائل هواره إلى بلد مسراتة، ويفضي إلى بلد سرت، وبرقة، وهو آخر جبال طرابلس، وكانت هذه الجبال من مواطن هواره، ونفوسة، ولواتة»⁴⁵.

ويرى ابن حزم أن نسبة البربر يزعمون أن سدراتة، ولواتة، ومزاتة، من القبط في حين يفند ابن خلدون ذلك⁴⁶. ويذكر اليعقوبي أنه وقع خلاف في نسبها؛ فالبعض يرى بأنهم من ولد لواتن بن بر بن قيس غيلان، وبعضهم يعتبرهم من لحم، أصلهم من بلاد الشام وانتقلوا إلى هذه الربوع، والبعض الآخر يرجع أصلهم إلى الروم⁴⁷. وترجح بعض الروايات أن اسم لواتة هو الاسم القديم الذي عرفت به هذه القبائل، وحواره اليونان إلى لوبيين أوليبين⁴⁸ وأن البربر إذا أرادوا الجمع أضافوا الألف والتاء فقالوا: «لوات»، ولما عربته العرب حملوه على الأفراد وأضافوا إليه الهاء فقالوا: «لواته»⁴⁹.

وتتفرع لواتة هي الأخرى إلى قبائل وبتون كثيرة مثل: سدراتة بن نيطط بن لوا، وعزوزة بن ماصلت بن لوا، وأكورة، وجرمانة، ومغانة، وبنو زائد بن لوا، وأكثر بطونهم مزاتة⁵⁰.

40 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستمين، تحقيق محمد ناصر، بحاز إبراهيم بكير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص52-53.

41 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص154-155.

42 - إدريس عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، (د.ت)، السبع الخامس، ص73.

43 - الوسياني: السير، مخطوط، بمكتبة القطب غرداية (الجزائر)، ج2 و36.

44 - مجهول: الاستبصار، ص172.

45 - ينظر: العبر، مج6، ص290.

46 - نفس المصدر، والمجلد، ص290.

47 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص4.

48 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص93.

49 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص235، الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص29.

50 - نفس المصدر، والجزء والصفحة: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

ب - هواره:

هي بطن من البربر البرانس تنسب إلى هوار بن أوريج بن برنس، جد البرانس، وتتفرع إلى عدة بطون أخرى مثل: غريان، وورفل، وسراتة، ومجريس³⁴. ولا يستبعد أن تكون مدينة غريان الحالية الواقعة في محافظة الجبل الغربي (جبل نفوسة) تنسب إلى هذا البطن. ورغم اتفاق نسبة العرب والبربر في أنهم من هواره إلا أن بعضهم يزعم أنهم من عرب اليمن، وينتسبون إلى المسور بن السكاسك بن وائل بن حمير. ويذكرون أن هوار بن أوريج هو ابن خنون بن المثنى بن المسور، وأن هواره، وصنهاجة، ولطة، وكزولة، وهسكورة، يعرفون جميعهم بـ «بني ينهل» وأن المسور هو جدتهم جميعًا، وقد نزلوا على بني زحيك بن مادغيس الأبتري جد البربر البتر. ولهواره بطون أخرى غير التي ذكرناها أعلاه، تنتشر في العديد من المناطق منها: بنو نبه، أوريج، وبنو كهلان، ولا يستبعد أن تكون قبيلة مليلة بطن من بطونهم³⁵.

وتزعم هواره أن مزاتة، ولواتة، كانوا منهم ثم فارقوا ديارهم، وانتقلوا إلى برقة وغيرها³⁶. وكانت مواطن هواره إبان الفتح الإسلامي في نواحي مدينة طرابلس وما يليها إلى برقة، وسرت، وكانت تجاور نفوسة، ومنهم من ارتحل إلى الجنوب الغربي ونزل قرب قبيلة لطة، إحدى قبائل الملتهمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان، ويعرفون بـ «هكاره» وقد حول الأعاجم وأوها إلى كاف أعجمية تخرج بين الكاف والقاف العربيتين فقالوا: «هكاره»³⁷. وقد سكنت طائفة من هواره جبل نفوسة³⁸ ولعل مسجد «إمصراتن» الواقع غير بعيد عن مدينة «جادو» من الجهة الشرقية تعود تسميته إلى القبيلة الهوارية «مسراتة» (بنو مسراتة) والتي تواجدت بصورة رئيسية في المنطقة الساحلية لطرابلس³⁹.

كما انتقلت هواره إلى تاهرت واستوطنت أحوازها، ففي عصر ابن الصغير كان لهم رؤساء يقال لهم الأوس، ويعرفون ببني مسالة، وعلى بعد عشرة أميال عن تاهرت يوجد

34- ابن خلدون: كتاب العبر، مج6، ص284؛ أحمد الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص27-28.

35 - ابن خلدون: نفس المصدر والمجلد، ص282-284.

36 - اليعقوبي: صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان، نشره دي خوية، مطبعة بريل 1850، ص7؛ محمد سليمان أيوب: جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراي للطباعة والنشر، طرابلس (د.ت)، ص52.

37 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص286؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص28.

ملاحظة: الأرجح أنها أمازيغية حيث أن الأمازيغ يحولون الواو المشددة إلى ك معكوفة كما في قولهم للشيء المحمر يزوغ وعندما يحولونه إلى لون يشددون واوه لتصبح أزوكاغ، أو الشعر زاو عندما يحولونه إلى صيغة الجمع تشدد واوه فتصبح نزاكن... والدليل الأهم من ذلك أن اله كارب قبيلة أمازيغية، فلماذا يلجأون إلى لغة الأعاجم لصياغة إسمهم.

38 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص125.

39 - T. Lewicki, La répartition géographique, p335.

وكانت لواتة تستوطن نواحي برقة في أثناء الفتح. فالمصادر تذكر أن عمر بن العاص صالح أهلها على الجزية. ويزودنا اليعقوبي بتفاصيل دقيقة عن مواطن بطونها. حيث يذكر بأن ببرقة جبلين. أحدهما يقال له «الشرقي» والآخر يقال له «الغربي» وهذا الأخير تسكنه بطون «زكودة، ومقرطة، وزنارة». ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون منها مدينة «برنيق» التي سكنتها بطون سوه، مسوسة، مفاغة، وأهلة، ووجدانة. كما تتواجد هذه البطون في مدينة إجدابية، ولهذه الأخيرة أقاليم، وساحل على مسافة ستة أميال منها ترسوا به المراكب. وهي آخر ديار لواتة من المدن. كما تتواجد في مدينة قابس⁵¹. وفي تاهرت حيث كان لها حصن يسمى «تماليت»⁵². وفي بعض مدن الواحات بين إفريقية ومصر⁵³ وفي جبل أوراس⁵⁴. وذكرها ابن خلدون ضمن القبائل التي انضمت إلى إدريس بن عبد الله في المغرب⁵⁵. ولا يستبعد أن تكون أسر عديدة من لواتة تقيم في الجبل أو في أطرافه. والدليل على ذلك أن عمر بن يكتن اللواتي - أحد علماء الإباضية - سكن الجبل بعدما كان في طريق مغمداس. وهو الذي تولى الإمارة في سرت. وقاد كتائب لواتة في الثورة التي فجرها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري - كما سنرى في الفصل الموالي - وقد اعتمد الأئمة الرستميون على بعض رجال لواتة في تعيينهم على النواحي. مثل تعيين الإمام عبد الوهاب لسلام بن عمرو اللواتي على سرت ونواحيها⁵⁶.

د - مزاتة:

مر بنا أن مزاتة هي من أكبر بطون لواتة. وقد انتشرت هي الأخرى في العديد من الأماكن مثل «باغاية»⁵⁷. وجبل نفوسة، فهناك إشارات توحى بأنها كانت متواجدة فيه بكثرة، ولها قصور ومدن معروفة بها. فقرية «دجي»⁵⁸ كانت تسكنها قبيلة «دغمة». وهي فرع من فروع «مزاتة». كما أن مسجد «طوفت»: الذي يقع بين «ويغو» ووادي «بقالة». تعود تسميته إلى بني «يطوفت». وحسب ابن عذارى فإن بني يطوفت ينحدرون من

(د.ت)، ص53.

51 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص3-4.

52 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص85-107.

53 - مجهول: الاستبصار، ص148.

54 - ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1982، ص144.

55 - ينظر: العبر، مج6، ص300.

56 - الشماخي: السير، طبعة حجرية، القاهرة (د.ت)، ص142-203.

T. Lewicki: Lawata, Encyclopédie De L'islam, Nouvelle Edition, 1979, p700701-.

57 - البكري: المغرب، ص144-145.

58 - (دجي) بكسر أوله وثانيه مع الشدة وتنطق أيضا في بعض المناطق (دجّي) بفتح الأول.

«نفزاوة»⁵⁹ بينما يذكرها ابن حوقل (بطوفة) كفرع من مزاتة، ولواتة، وهوارة⁶⁰. وينسب إلى هذا الفرع الزعيم الإباضي أبو حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي. لأن يطوفت ينحدر من ملزوزة.

وإلى الشمال من جادو توجد بلدة تسمى «أرجان». تعود تسميتها إلى قبيلة تنحدر من مزاتة، وإليها ينسب الشيخ أبو يحيى زكريا الأرجاني، الذي تولى رئاسة الجبل في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي شرق مدينة ميري توجد قرية «درف»، المنسوبة إلى «بني درف»، والذين ذكرهم ابن حوقل ضمن قبائل مزاتة، ولواتة، وهوارة⁶¹.

كما نجد العديد من الشيوخ الساكنين بالجبل ينحدرون من أصول مزاتية، مثل: أبي عثمان المزاتي في «دجي»⁶² و«بيران الزمرتي»، عامل عبد الوهاب وأبي نوح سعيد بن زنگيل المطكودي⁶³. وينتسب هذا الأخير إلى بني مطكوداسن (مصكوداسن، مطكودازن). ويرى ليفيسكي أن بني مطكود فرع من مزاتة، وأن الجزء الأخير من الكلمة (اسن) غير مفهوم على الرغم من شيوع استعماله عند البربر مثل: (جلداسن)، (يغمراسن)، و(سمداسن). كما أن هناك بلدة تقع على شاطئ طرابلس تسمى «سويقة ابن مطكود»⁶⁴. أما الإدريسي فيسميها سويقة ابن مثكود، ويذكر بأنها تبعد عن مدينة زويلة بستة عشر مرحلة⁶⁵.

وكانت مزاتة زمن الفتح تسكن مدينة الرمادة، وسرت، وودان، وتنقطع منازلها ابتداء من «تاورغا». حيث تبدأ منازل هوارة⁶⁶. كما تواجدت بطون منها في أرياض تاهرت، فابن الصغير يذكر أن المزاتيين، والسدراتيين، كانوا ينتجعون من أوطانهم في المغرب في فصل الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها بحثا عن الكلا⁶⁷. ويبدو أنهم كانوا أعدادا كبيرة حتى إنهم أمروا عليهم أبا يعقوب المزاتي، أحد أئمتهم⁶⁸. ويذكر الإدريسي بأن لهم أقواما قرب «لك» وهو موضع لا يبعد كثيرا عن «طلمئية»، بين برقة وطرابلس⁶⁹. وفي عصر الدرجيني

59 - ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروقنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1980، ج1، ص66.

60 - ينظر: صورة الأرض، ص103.

61 - نفس المصدر، ص103؛ وينظر كذلك Lewicki, La répartition géographique, p333-T. 336.

62 - الشماخي: السير، ص205.

63 - المصدر نفسه، ص591.

64 - T. Lewicki, Du nouveau sur la liste , p183.

65 - ينظر: القارة الإفريقية، ص214.

66 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص2-4-5-6.

67 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص7.

68 - المصدر نفسه، ص113.

69 - ينظر: القارة الإفريقية، ص214.

كانت أقوام كثيرة منها تعيش في إفريقية. حيث قال: «كانت مزاتة بإفريقية في قوة عظيمة. من مال. وحال. ورجال. وخيل. وقالوا إنهم كانوا إذ ذاك في إثني عشر ألف فارس. وأما الرجال فلا يحصون كثرة»⁷⁰.

ه - سدراتة:

هي إحدى بطون لواتة. اتخذت هي الأخرى الجبل موطنًا لها. حيث جُدها في بلدة «تاغرويت». قرب مدينة نالوت. وفي «تبرست». و«تين ونزيرف». و«إنير». وفي بلدة «مرغاس». التي تعود تسميتها إلى قبيلة «بني مرغاس». السدراتية⁷¹. وتذكر المصادر علماء أجلاء من أصل سدراتي مثل: أبي مرداس مهاصر السدراتي الساكن بتبرست. والذي كان معاصرا للإمام عبد الوهاب (171-208هـ) (787-823م). فهو الذي كان يجمع أموال الوصايا بالجبل. فيحملها معه إلى بيت مال تاهرت⁷². كما تواجدت في مدينة بسكرة ببلاد الزاب. رفقة بني مغراوة⁷³. ويشير ابن خلدون إلى أن «بني جابر» المقيمين في «ورديقة» - في سفح جبل تادلا - بالمغرب يزعمون أنهم بطن من بطون سدراتة⁷⁴. كما استوطنت سدراتة جنوب وارجلان. وأسس أفرادها مدينة لهم عرفت باسمهم. وقد ساهمت هذه القبيلة في تموين أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى بالمؤن عندما فجر الثورة ضد العبيديين⁷⁵.

و - لاية:

هي بطن من بطون بني فاتن من ضريسة. إحدى بطون البربر البتر. وكلهم من ولد فاتن بن تمصيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبت⁷⁶. ولها بطون كثيرة نذكر منها: بنو زكوف. مزيزة. مليزة. بنو مدينين. وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط في تاهرت⁷⁷. كما اتخذت إقليم طرابلس موطنًا لها. حيث اجتمعت جموعها عند عيون «تمولست» بين

طرابلس. وإفريقية⁷⁸. وهناك موضع يعرف باسمها يقع بين «زنزور». و«الزاوية»⁷⁹. ويبدو أن بطونا منها كانت موجودة في الجبل. خاصة وأنها كانت - فيما بعد - سندا قويا للمذهب الإباضي. وقد اشتهر بعض رجالها بالعلم وحلقات التدريس⁸⁰.

ز - زناتة:

هي قبيلة بربرية كبيرة اعتبرها ابن خلدون فرعا قائما بذاته عن سائر البربر. ونسبها إلى البربر البتر. وكانت فروع منها مقيمة في الجزء الشرقي من الجبل. ففي ناحية «فساطو» وغير بعيد عن بلدة «واسين». جُدها موضعًا يسمى «حارة بني انغاسن». فهذه التسمية تعود إلى القبيلة البربرية الإباضية «بني ينغاسن». وهي إحدى فروع زناتة. كما أن «يوجلين» الواقعة قرب «جادو» تعود تسميتها إلى «بني يوجلين» المنسوبة إلى زناتة⁸¹. وإليها ينسب الشيخين العالمين: أبا محمد عبدة بن أفلح الياجلاني. وأبا الربيع اليجلاني (الياجلاني)⁸². كما أن إيدرج (يدرج. تدرج) هي من دون شك اسم لقبيلة زناتية. كانت تسكن واحة «درج» والتي لا تبعد كثيرا عن غدامس⁸³.

ح - زواغة:

هي بطن من بطون البربر البتر. من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبت. ويتفرعون إلى ثلاثة بطون هي: دمر. بنو واطيل. وبنو ماخرين. وأما مواطنهم فهي جبال شلف. وفاس. وقسنطينة⁸⁴. ولا تذكر المصادر الجغرافية. أو المصادر التي اهتمت بذكر مواطن القبائل وخرائطها إن كانت زواغة متواجدة في الجبل أو لا على الرغم من أن هناك مدينة تقع غربي طرابلس بنحو خمسين كيلومترا. وغربي صبراتة بنحو عشرة كيلومترات تسمى «زواغة» نسبة إلى القبيلة⁸⁵.

وبالإضافة إلى القبائل التي ذكرناها. هناك قبائل أخرى كانت موجودة في الجبل مثل:

78 - أبو زكريا: كتاب السيرة وأخبار الأئمة. تحقيق: عبد الرحمن أيوب. الدار التونسية للنشر. تونس. 1985. ص271.

79 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي. ص29-30.

80 - منهم أبو محمد عبد الله بن مانوج اللماهي. أحد علماء النصف الأول من القرن 5هـ (11م) وهو أحد الجماعة التي ألقت ديوان العزابة ينظر: أبو زكريا. المصدر السابق. هامش 13. ص241.

81- T Lewicki, La répartition, p335.

82 - ينظر: السير. ص334-335.

83 - T Lewicki: Du Nouveau Sur La Liste Des Tribus Berbères, p185.

84 - ابن خلدون: العبر. مج6. ص261-264.

85 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي. ص29.

70 - ينظر: طبقات المشائخ بالمغرب. تحقيق: إبراهيم طلاي. مطبعة البعث. قسنطينة (د.ت). ج1. ص124.

71 - الدرجيني: المصدر السابق. ج2. ص292: الشماخي: السير. ص595.

73 - البكري: المغرب. ص53.

74 - ينظر: العبر. مج6. ص67-68.

75 - أبو عبد الله الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تحقيق جلول أحمد البدوي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984. ص41.

76 - ابن خلدون. المصدر السابق. مج6. ص239.

77 - نفس المصدر والمجلد. ص246.

تناوة. زنداجة. ويزمرتن وبعض العرب من معافير اليمن⁸⁶. ويرى الباروني أن هناك بعض القبائل قدمت من المشرق الإسلامي إلى الجبل. ويعلل قوله بأن هناك أماكن وقبائل تسمى بأسماء أماكن في المشرق منها: قبيلة «الحمران» التي نزلت بجبل فساطو. وعمّرت بلدة تعرف باسمها. ومنها «جزوى» وهو موضع في ظاهر جبل فساطو. ومنها قبيلة «طرميسة» التي سكنت الموضع الذي يعرف باسمها والواقع على رأس جبلين «جادو» و«تاردية». ومنها المكان المسمى بـ «جندوبة» بناحية ككلة قرب جبل يفرن⁸⁷.

ومهما يكن من أمر فإن جبل نفوسة كان عامرا بالسكان من قبائل متعددة. على الرغم من أن المصادر تذكر بأن العرب لم يجدوا عند الفتح في إقليم طرابلس سوى لواتة ونفوسة. وجمع المصادر الجغرافية على عمارته. فاليعقوبي يقول: «ومنازلهم (أي نفوسة) في جبال طرابلس في ضياع. وقرى. ومزارع. وعمارات كثيرة... وديار نفوسة متصلة من حد طرابلس ما يلي القبلة إلى قريب من القيروان. ولهم قبائل كثيرة وبطون شتى»⁸⁸. فلا غرابة -إذن- أن تحيط بمدينة «شروس» وحدها أزيد من ثلاثمائة قرية⁸⁹.

وإذا عدنا إلى المصادر الإباضية جدها تشير إلى المئات من القرى. إضافة إلى الحواضر المعروفة مثل: «جادو. شروس. ويغو. إفاطمان. كاباو. ابدلان. تندميرة (تندميرت). ميري. تمزين. فساطو. جناون. تملوشايت. وغيرها من المدن. وتجدر الإشارة في الأخير أنه وبالإضافة إلى القبائل البربرية التي ذكرناها. هناك بعض الروم الذين استقروا في الجبل. أما العبيد من السودانيين فقد كثرت أعدادهم في الجبل عندما راجت تجارة الرقيق في بلاد المغرب.

وأما عن سبب تسمية هذا الجبل بجبل نفوسة. فيعود إلى قبيلة نفوسة وهي أشهر القبائل التي سكنته. على الرغم من أنها كانت تستوطن جزءا منه فقط. ويبدو أن التسمية شملت كل أطرافه فيما بعد أي بين وزان وحدود يفرن الغربية؛ ضامة بذلك كل المناطق الأهلة التي لا ينحدر سكانها أصلا من قبيلة نفوسة. ولكنهم دخلوا في خالف معها. ويبدو أن نفوسة كانت في العصور الوسطى تسيطر فقط على الجهة الغربية من الجبل والتي تسمى «أميناج» في حين أن الجهة الشرقية - أي جهة جادو -

86 - الشماخي: السير. ص596-597.

87 - سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. تحقيق محمد علي الصليبي. المطابع العالمية. روى سلطنة عمان 1987. ج2. ص137.

88 - ينظر: صفة المغرب. ص7.

89 - مجهول: الاستبصار. ص144.

والتي تحدها غربا منطقة الرحيبات كانت تسكنها قبائل عديدة لا تنحدر من نفوسة⁹⁰. وقد اندمجت معها منذ وقت مبكر. فابن خلدون يعد قبائل بني زمور. وبني مصكورة. وماطوسة. كبطون منها⁹¹.

ولا نعرف بالضبط متى أصبح الجبل يسمى باسمها. ولكن يبدو أن ذلك يعود إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) خاصة عندما أخذت بالمذهب الإباضي وتزعمت ثورة الخوارج في إفريقية. ولعبت دورا كبيرا في تأسيس الدولة الرستمية سنة 160 هـ (776م). ولم تذكر المصادر تسمية أخرى لهذا الجبل اللهم ما ذكره اليعقوبي بقوله: «أرض نفوسة»⁹².

3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي:

تتفق المصادر على أن جبل نفوسة كان عامرا بالسكان قبل الفتح الإسلامي. حينما كان ضمن إقليم طرابلس. وقد لاحظ J.Despois أن تكاثر العمارة بالجبل قد أكدته علم الآثار. ويحتمل أنه يعود إلى عصر ما قبل التاريخ عندما كان الجبل ملجأ - مثل الواحات ووادي النيل والوديان الصحراوية - لمخلوقات العصر الحجري الجديد. الذين تخلوا عن المساحات الفسيحة المستخدمة في العصر الحجري القديم بسبب الجفاف. وبما أن إمكانات الجبل محدودة. فإننا نلاحظ أن سكانه اعتمدوا على سهل الجفارة الممتد جنوب مدينة زوارة الحالية لمسافة تفوق مائة كيلومتر⁹³.

وإذا كنا لا نجد المادة الكافية التي تضيء لنا تاريخ الجبل كوحدة جغرافية. فلأن أخبار إقليم برقة وطرابلس طغت على تاريخ المنطقة. إلا أن البحوث الأثرية أكدت وجود حضارة فيه بلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار. فقد قام عدد من العلماء الإيطاليين بدراسة عصر ما قبل التاريخ في كل من برقة وطرابلس. وقام الأثري جرازينوزي Graziosi بعدة أبحاث. ثم جاء بعده عالم الآثار الفرنسي دالوني Dalloni ليكمل البحوث في إقليم فزان. وسمحت هذه البحوث بالكشف عن العديد من الرسوم والنقوش التي تصور حياة الإنسان في تلك الفترة الزمنية الغابرة. وكانت هذه الرسوم الصخرية ممتدة من جبل نفوسة شمالا إلى تاسيلي جنوبا. أما الرسوم فهي عبارة عن حيوانات مفترسة. وحيوانات برية. ورجال

90 - T. Lewicki, La répartition, p.332

91 - ينظر: العبر. مج6. ص229-230.

92 - ينظر: صفة المغرب. ص7.

93 - Jean Despois: Le djebel Nafusa, p280

يقودون عربات جرها الخيول، أو يركبون الخيول بأنفسهم، ورجال يرعون الجمال⁹⁴. ويذكر محمد سليمان أيوب أن سكان جبل نفوسة هم أول من استورد الجمال بعد سكان لبدة. هذه الأخيرة التي كانت مركزا لبيع الإبل في هذه المنطقة في القرن الرابع الميلادي. ثم اشتهرت قبائل مزاتة، ولواتة، وهوراة بتربيتها واستعمالها كوسيلة نقل للتوغل في الصحراء. ويرى بأن تسمية الجمل في الصحراء بـ «الزايلة» مرده أن هذا الحيوان جاء إلى الصحراء الكبرى لأول مرة مع أهل «زلة». وزلة⁹⁵ مدينة هوارية تقع جنوب سرت⁹⁶ وإذا كانت كلمة «زايلة» يقصد بها في بعض الجهات «الجمل»، فإنها تعني في مناطق أخرى من بلاد المغرب كل حيوان يستعمل للركوب والتنقل، وهذا يجعلنا نستبعد أن تكون كلمة «زايلة» تعود تسميتها إلى هذه المدينة. ولعل أول ما يسترعي الاهتمام هو أن جبل نفوسة كان منذ القدم عامرا ومأهولا بأقوام إفريقية عريقة في القدم. تعرضت لغارات وغزوات آتية من البحر. أو من الصحراء. وبعد هؤلاء أنفسهم أجدادا للبربر⁹⁷. وقد ذكر صاحب الاستبصار أن مدينة شروس قديمة وفيها آثار للأول⁹⁸ مما يعني أن عمرانها يعود إلى الأزمنة الغابرة.

وتجدر الإشارة إلى أنه ليست لدينا معلومات كافية عن الجبل في العصور الغابرة لأن المصادر أغفلت هذه المرحلة. ولكن يمكن القول إن المنطقة الواقعة بين الساحل والواحات الصحراوية هي المنطقة الوحيدة التي تتوفر على موارد المياه في العصر الحجري القديم والجديد وبالتالي يمكن أن توجد هناك حياة تمكن الإنسان النفوسي من الاشتغال بالزراعة. وبعد مجئ الفينقيين احتل هؤلاء بعض الموانئ مثل: لبيتيس، وماجنا، وأويا، وصبراتة. وقد أشار سنزابون إلى أن سكان الجفارة في القرن الأول الميلادي هم من الليبيين والفينقيين. كما تحدث هيرودوت بعد أربعة قرون عن «اللوتوفاجيين»، و«الجنديانيين»، و«الجارمانت» في فزان ووصفهم بأنهم من الأثيوبيين، وبينهما تواجد الجيتول البدو في القبلة والظهر. والجيتول هؤلاء هم سكان الجبل⁹⁹.

94 - محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1811. المطبعة الليبية، طرابلس (د.ت)، ص36-38.

95 - يسميها الإدريسي (زالة) وهي مدينة تبعد عن أوجلة بعشر مراحل، وعن زويلة بعشرة أيام، وعن ودان بثلاثة أيام وعن سرت بتسعة أيام، ينظر: القارة الإفريقية، ص213.

96 - محمد سليمان أيوب: جزمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص205-206.

97 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص15.

98 - ينظر: ص144.

99 - عبد الجليل الطاهر: المرجع السابق، ص66.

Jean Despois: Le djebel Nafusa, p281-

ومهما يكن من أمر فإن معرفتنا بإقليم طرابلس تبدأ مع القرن العاشر قبل الميلاد، حيث كانت تسكنه أقوام تدعى «الليبيين»، ذكر هيرودوت (ق 5 ق م) بعض أسمائهم مثل: الناسمون (Nasmoni) سكان خليج سرت، وبسيللي (Psylli)، وماكاي (Macaе)، وجندانس (Gindanes)، في المنطقة الواقعة بين خليج سرت الصغير (خليج قابس)، وفي المناطق الداخلية نجد «الجارمانت» (Garamanti)، و«الغانفسنتي» (gamfasanti). أما سنزابون فإنه يضيف عما ذكره هيرودوت الجيتول باعتبارهم هم كذلك من سكان المناطق الداخلية، وتعد الأخبار التي أوردها بروكوبيوس (القرن السادس الميلادي) الأكثر دقة؛ حيث ذكر أنه كانت تعيش بطرابلس قبائل لواتة فيما بين خليج سرت الكبير ومدينة طرابلس (أوئيا)¹⁰⁰.

وتشير المعلومات المتوفرة أن الليبيين كانوا من البدو الرعاة، يتحدثون لهجات ليبية، وهي اللهجات التي تحولت فيما بعد إلى لهجات بربرية، وقد احتك هؤلاء بالفينقيين، واتصلوا بهم واستعملوا لغتهم البونيقية القرطاجية في الوقت الذي اشتهر فيه الصراع والتنافس بين القرطاجيين واليونانيين (الدوريين الإغريق). هذا الصراع الذي سمح لليونانيين (631 ق م) باستعمار سواحل برقة وتأسيس مدينة «قورينا»، في حين سيطرت قرطاجنة على المراكز التجارية الكبيرة - المعروفة عند اليونان باسم «امبوريا»¹⁰¹.

وتوحي بقايا الآثار الموجودة الآن في الجبل إلى وجود قصور كثيرة يعود تاريخها إلى الفترة الرومانية في شمال إفريقيا¹⁰². ففي القسم الغربي من الجبل بقايا قصور في حاجة إلى دراسة أثرية مثل: القصور الموجودة في كل من نالتوت، وكباو، وأولاد محمود، والمجبرة وفرسطا، والرجبان، وقصر قرية «أولاد عنان»، وقد كانت هذه القصور تستعمل كمخازن للغلال والمحاصيل الزراعية¹⁰³.

وتتحدث الدراسات عن معاصر الزيتون المنتشرة في الجبل، والتي تعود إلى فترة الحكم الروماني للمنطقة. ويختلف جبل نفوسة عن جبل «ترهونة» و«مسلاتة» التي تشهد فيها آثار وأطلال المعاصر على تطور زراعة الزيتون حيث لا نجد في الجبل آثارا لبقايا المعاصر وإنما نجد الكهوف التي شيدت فيها المعاصر. وبعد هذا النوع قديما جدا، حيث يستعمل

100 - روسي إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط2، بيروت، 1991، ص26-27.

101 - روسي إتوي: المرجع نفسه، ص30.

102 - Jean Despois: Le djebel Nafusa, p282.

103 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص23.

فيه الخشب والطواحين من الحجر. وتذكر الروايات أن الرومان قلدوا الأهالي في طرق عصر الزيتون¹⁰⁴.

ويبدو أن الرومان أقاموا في القرن الثاني بعد الميلاد حصونا ومراكز للمراقبة على الطريق الساحلي من قابس إلى لبة، وعند المواقع المرتفعة. وتبع ذلك إنشاء تحصينات أخرى سميت بـ «الحدود الطرابلسية» (Limites Tripolitains) أنشئت على شكل قوس ينتهي طرفاه عند تونس ولبة مروراً بالجبل. كما شيدوا الحاميات الدفاعية لصيانة الطرق التي تمتد نحو الداخل حتى «فزان» عن طريق «غريان» الواقعة في الجبل¹⁰⁵.

أما في فترة حكم الوندال فلا نجد معلومات كافية عن الجبل بل تتحدث الروايات فقط عن الثورات التي ظلت تتزعّمها طرابلس. ولا يستبعد أن يكون سكان الجبل قد شاركوا في هذه الثورات، لأنه ولقرب المسافة فإن أي اضطراب يحدث في طرابلس إلا ويكون له تأثير على الجبل. خاصة وأنا نعلم أن ثورة «كباون» Cabaon - أحد الزعماء الليبيين - ضد الوندال الذين جهزوا حملة من قرطاجنة لغزو طرابلس. جرت في سفوحه عند السهل الواقع بين طرابلس وقابس¹⁰⁶.

وبالقضاء على الوندال. تمكن البيزنطيون من السيطرة على طرابلس عندما طلب سكانها العون والنجدة. ولم يعمر الاستقرار طويلاً في المنطقة. إذ قامت لواتة بعدة ثورات بين سنتي 545 و546م والانتصار على حاكم إفريقية كلها وقتله. وانتهت في الأخير بأن تمكن البيزنطيون من إخمادها بعد جهد شاق. ويبدو أن قبائل البربر في المنطقة كانت لهم قوة سمحت لهم بإقامة دولة أو دويلات وطنية لها قوانينها وحكامها. وكانت لواتة، وهوارة، ونفوسة، على جانب عظيم من القوة. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه القوة لم تعمر طويلاً. ولم تستمر إلى أواخر عهد البيزنطيين. فالحروب الطويلة أنهكت قواها ما جعلها تجنح إلى السكون والخضوع للحكم البيزنطي على الرغم من تدمير أفرادها من الضرائب المفروضة عليهم. وظلوا يتوقفون إلى التخلص منه خاصة عندما بلغتهم أخبار الفاتحين العرب ووصولهم إلى مصر¹⁰⁷.

104 - المرجع نفسه، ص67: 283-P. Jean Despois: op. Cit. 284.

105 - روسي إيتوي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص41.

106 - روسي إيتوي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص34.

107 - حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص51: صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر. منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، بيروت، 1978، ص25-26.

4 - الديانة:

من المعروف أن المسيحية كانت منتشرة بين الأفارقة والجاليات الرومية. أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة وجليّة إنما كانوا وثنيين¹⁰⁸. وكانوا يمارسون بعض الطقوس الدينية السحرية التي كانت مستعملة في الديانات الوثنية الإفريقية. وهذا قبل أن يحتل الفينيقيون والرومان هذه البلاد. وما صاحب هذا الاحتلال من فرض عبادة آلهتهم على الأهالي. ولا يستبعد أن يكون البربر قد أخذوا هذه الطقوس الوثنية من إفريقيا السوداء وربما العكس خاصة وأنهم كانوا على صلات وثيقة مع سكان تلك البلاد¹⁰⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن البربر لم تكن لهم أفكار معينة عن الإله وعن مصير الإنسان. وإنما كانت لهم بعض المعتقدات البدائية مثل عبادة الشمس، والقمر، والأصنام، والاعتقاد في السحر، والشعوذة. وقد أشار البكري إلى وجود أصنام مثل الصنم الذي شيده القبائل القاطنة في «ودان» القريبة من جبل نفوسة حيث كانوا يقدمون له القرابين ويتبركون به في أموالهم. وقد أقامته القبائل المحيطة به على ربوة أطلقوا عليه اسم «كرزة»¹¹⁰.

وتشير الروايات إلى بعض مشاهد الجبل المقدسة والتي كانت تحظى بزيارات المشائخ ربما للتبرك. مما جعل ليفيتسكي يرجح أن تكون عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية منتشرة في الجبل. فقد ذكر الشماخي أن النفوسيين كانوا يقصدون صخرة الوادي ومصلى «تزروت» (الصخرة)¹¹¹. وعلى الرغم من أن الشماخي يربط هذه الأماكن بشخصيات إباضية كانت تتعبد فيها إلا أنه - وحسب ليفيسكي - لا يستبعد أن تكون مراكز للعبادة منذ زمن بعيد. أي قبل الإسلام. وهناك مجموعة أخرى من الصخور المقدسة مثل صخرة «توكيت»، وصخرة «تيناولوتين» أبو خليل. وبما أن هذه الأخيرة كانت مقدسة، فقد أقام أبو خليل الدركلي (ق3هـ/9م) مصلى له فيها. فاشتهرت باسمه¹¹².

كما كانت النفوسيات يمارسن بعض الطقوس عند بعض عيون الماء التي اشتهرت

108 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، ط1، القاهرة، 1980، ص29: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص16.

109 - مورس لومبار: الإسلام في مجده الأول، القرن 8-11 (2-5هـ)، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984، ص83.

110 - ينظر: المغرب، ص12.

111 - ينظر: السير، ص599.

112 - T. Lewicki: Survivances chez le berbères medieviaux d'être musulmane de cultes anciens et de croyances Paennes, Folia Orientalia, 1967, t 8, p1516-.

في الجبل بأن الاغتسال من مائها يشفي ويقي من الأمراض. فغير بعيد عن القلعة توجد عين تسمى عين «نانا تالا» كانت النساء يأتين بأولادهن لغسلهم¹¹³.

وإبان الاحتلال الروماني حاول الرومان فرض ديانتهم على البربر بعبادة آلهتهم مثل أوزير، وإيزيس، وخاصة عبادة الإمبراطور الروماني. ولكن البربر لم يقبلوا عليه بل ظلوا يحتفظون بعبادة آلهتهم مثل آلهة «تانيت»، والآلهة القرطاجية مثل الإله «بعل حمون»¹¹⁴.

ولما أرسل الله عيسى ونشر الحواريون هذا الدين في مختلف بقاع العالم، وصل هذا الدين إلى المغرب في القرن الثاني الميلادي وانتشر بين البربر على الرغم من احتفاظهم ببعض معتقداتهم، فقد كانوا يشنون الغارات على المدن الساحلية وينهبون كنائسها للحصول على أواني لاستخدامها في طقوسهم الدينية¹¹⁵.

وحارب الرومان في البداية هذه الديانة. وتعرض المسيحيون من البربر والرومان على السواء لاضطهاد كبير من قبل الأباطرة في القرن الثاني الميلادي. خاصة من لدن الإمبراطور (صوكليسيان) الذي تولى الحكم سنة 274م. حتى إن فترة حكمه عرفت بـ «عصر الشهداء». نظرا لمقتل أعداد كبيرة منهم. ولما ارتقى الإمبراطور قسطنطين عرش روما سنة 312م أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية. ونظرا للكراهية الشديدة التي يكنها البربر للرومان كرهوا ديانتهم واعتنقوا الدوناتية - وهو مذهب مخالف للمذهب الأرثوذكسي الكاثوليكي الذي تبناه الرومان¹¹⁶.

ولما تفاقم الخلاف بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة إلتجأ دوناتوس إلى البربر وأعلن الثورة ضد الرومان. وحاول هؤلاء إرغام الأهالي على التخلي عن مذهبهم والأخذ بمذهب كنيسة القسطنطينية. حتى إنهم كانوا يحاصرون المدن ويعدمون كل شخص يرفض التخلي عن مذهبه. مما أدى إلى فرار العديد منهم إلى إيطاليا، وإسبانيا، وألمانيا. وتقلص شيا فشيئا عدد المسيحيين في البلاد¹¹⁷.

113 - T. Lewicki: op. Cit. P18.

114 - رشيد الناصوري: المغرب الكبير. دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 1، ص 342-343.

115 - يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية (الشمال الإفريقي). مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ج 1، ص 15-17؛ زاهر رياض: شمال إفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1981، ص 33.

116 - محمد علي دبو: تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، القاهرة، 1963، ج 1، ص 406.

117 - زاهر رياض: المرجع السابق، ص 34.

ولما جاء الوندال اضطهدوا أتباع المسيحية بمختلف مذاهبها. وقد أدى ذلك إلى ضعفها فارتد عنها الكثيرون. وحاول جستنيان إعادة نشرها في البلاد. فبنى الكنائس ونشط حركة التبشير فانتعشت المسيحية من جديد. وأقبل عليها البربر في مدينة صبراتة وطرابلس وتمكنت المسيحية من التوغل في المناطق الداخلية مثل أوجلة Augila، وغدامس Cydames. أما في العصر البيزنطي فقد ضعف دور الكنيسة الإفريقية، وتعرض دعاة الدوناتية للاضطهاد من جديد، فدعوا مرة أخرى إلى الثورة¹¹⁸.

وأقبل النفوسيون على المسيحية كبقية البربر وظلوا محافظين عليها. فعندما فتح عمرو بن العاص الجبل وجد سكانه على دين النصرانية¹¹⁹. وتحدثت المصادر عن كثرة الكنائس وانتشارها في المدن النفوسية مثل: كنائس «فرسطا، الجزيرة، بغطورة، تنبطين، أغرمينان، تمزدا، توكيت، ونسيم»¹²⁰.

وعاش بقايا النصارى بين نفوسة في هدوء واستقرار بل هناك من العلماء من تزوج من النصرانيات. مثل: أبي يحي الأزدالي الذي تزوج أم الخطاب. وبفضله أسلمت. وحفظت القرآن. وتعمقت في الدين الإسلامي حتى أصبحت مرجعا من مراجعه. وأنشأت معبدا لها في «تغرمين» سمته «إغرم إيمان»، ومعناه «قصر النفس في مجلس الذكر»¹²¹ كما كانت أم أبي يحي تكسنت نصرانية الديانة¹²². ويرجع الفضل لشيوخ نفوسة في نشر الإسلام بين المسيحيين، واليهود على المذهب الإباضي. فهناك من النصارى الذين اعتنقوا المذهب من تقلد الرئاسة في الجبل مثل: أبي منصور إلياس¹²³.

وأما اليهودية فقد وصلت إلى المنطقة مع موجات الهجرة المتواصلة منذ أقدم العصور بعضها يهودية، وبعضها سامية، وبعضها هندوأوروبية، كاللاتين، والوندال، والإغريق، وبعضها زنجية¹²⁴. وليس مستبعدا أن تكون اليهودية قد وصلت إلى جبل نفوسة من الحبشة، وشرق إفريقيا، ذلك أنه لما احتل بختنصر البابلي مدينة بيت المقدس وشرّد اليهود إلتجأ العديد منهم إلى الحبشة في أواخر القرن السادس ق م، وفيها أنشأوا

118 - حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 29-31.

119 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 8؛ مجهول: الاستبصار، ص 144.

120 - الشماخي: السير، ص 598-599؛ 372-R. Basset, Les sanctuaires, p372.

121 - المصدر نفسه، ص 256؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 245-246.

122 - المصدر السابق، ص 245.

123 - نفسه، ص 224.

124 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ت)، ص 48.

المراكز التجارية التي لعبت دورا كبيرا في نشر ديانتهم بين الأحباش وفي شرق إفريقيا عموما¹²⁵.

إن المصادر تشير إلى وجود جاليات كبيرة من اليهود اتخذت الجبل موطنها لها، ونظن أنها من بقايا الفترة التي تسبق الفتح الإسلامي، فجادو مثلا كان أكثر أهلها يهود¹²⁶. ويذكر ليفيتسكي بأنه كان لهم حي خاص بهم¹²⁷. وقد استمر تواجدهم في الجبل إلى فترة متأخرة، حيث اشتغلوا بالتجارة شأنهم في كل مكان وزمان، وظل اليهود يحتفظون بمكانتهم عكس النصارى الذين اختفوا تدريجيا.

ويعود تاريخ التواجد اليهودي في بلاد المغرب إلى عهد الفينيقيين، ثم تكاثرت أعدادهم مع قدوم المهاجرين الجدد بعد الاضطهاد الروماني، واستقروا في بعض المدن المغربية مثل: طلميثة، وطرابلس، وجادو، ومارسوا التجارة، ونظرا لاضطهاد الرومان لليهود فقد فروا إلى المناطق الداخلية، ولا يستبعد أن يكون يهود جادو من الفارين من السلطة الرومانية. كما استقر اليهود في مدينة أجدابية، ودرنة، قرب برقة، وسرت، فهناك قرى خاصة بهم مثل «اليهودية» ويرى صالح مصطفى أن هؤلاء اليهود قد انحدروا من نسل البربر الذين اعتنقوا اليهودية بعد قدوم يهود فلسطين إلى هذه المنطقة بعد طردهم في القرن الأول الميلادي¹²⁸.

ولا نستبعد أن يكون بعض يهود جادو قد أخذوا بالذهب الإباضي على غرار النصارى رغم أننا نفتقر للشواهد التاريخية، فالمصادر الإباضية لا تشير إلى ذلك.

5- الفتح الإسلامي للجبل:

على الرغم من الحن التي مر بها جبل نفوسة في الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي، إلا أن القبائل التي كانت تستوطنه ظلت تحتفظ بقدر من القوة K حتى إن العرب الفاتحين عندما تمكنوا من فتح مصر كانوا على علم ودراية بقوة نفوسة، وعندما وصلوا إلى هذه المنطقة كان تعاملهم مع هذه القبيلة، يقول ابن خلدون: «كانت البطون التي فيها

125 - محمد عبد الله النقيرة: انتشار الإسلام في إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض، 1982، ص46-47.

126 - البكري: المغرب، ص9: مجهول: الاستبصار، ص144: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط1، القاهرة، 1906، ص5، ص92.

127 - T. Lewicki, La répartition, p 335.

128 - ينظر: ليبيا منذ الفتح، ص191-194.

الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر لعهد الفتح: أوربة، وهوارة، وصنهاجة، من البرانس، ونفوسة، وزناتة، ومطغرة، ونفزاوة، من البتر»¹²⁹.

وكما هو معروف فإن المحاولات الأولى لفتح بلاد المغرب تمت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (13-23هـ) وذلك سنة 22هـ. فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سنة 21هـ توجه رفقة جنده قاصدا بلاد المغرب، حتى قدم مدينة برقة (انطابلس) فصالح أهلها على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه، وكتب لهم كتابا بذلك، وأصبح من يومها أهل برقة يرسلون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم جابي خراج¹³⁰.

وبعد أن خضعت برقة للفاتحين، واصل عمرو بن العاص طريقه سالكا الساحل متقدما إلى طرابلس، وفي طريقه تمكن من فتح المدن المنتشرة في أرباض برقة مثل توكير (توكرة)، ويزنيق (بنغازي)، ومنها انتقل إلى اجدابية في السنة نفسها أي 22هـ (642م)، فافتتحها صلحا على خمسة آلاف دينار¹³¹. ولتأمين ظهره أرسل عمرو عقبة بن نافع إلى ودان، وزويلة فافتتحها. وبعد هذا الانتصار الذي حققه المسلمون في هذه الربوع أرسل عمرو بن العاص الخليفة عمر يخبره بأنه ولي عقبة بن نافع المغرب وأنه بلغ مدينة زويلة، وأن كل البلاد الممتدة بين برقة وزويلة يسودها السلم، وأهلها يحسنون الطاعة، كما أخبره بأنه قد فرض على أهل زويلة ما رأى أنهم يطيقون دفعه، وأعطى أوامره للعمال بأن يأخذوا من الأغنياء الصدقة وتوزع على الفقراء والمحتاجين، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر¹³².

ووصل عمرو إلى مدينة طرابلس وحاصرها حصارا شديدا دام حوالي شهر، وتذكر الروايات أن أهلها استنجدوا واستغاثوا بقبيلة نفوسة، وكانت مدينة سبرت (صبراتة) من أهم معاقلها، ولكن بعض المؤرخين يستبعدون هذه الرواية لأن المقاومة التي لقيها

129 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص296.

130 - البلاذري: فتوح البلدان، راجعه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص225-226.
: ابن الأبار: كتاب الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963، ج1، ص13-14: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج4، ص389: ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص30: حسين مؤنس: معالم، ص31: صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص29-30: محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (دون مكان)، 1984، ص9-10: محمد فرج: عمرو بن العاص، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1960، ص265.

131 - ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج1، ص100: صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص30-31.

132 - البلاذري: المصدر السابق، ص226-225: صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص31.

وتهمل المصادر بعد هذه الأحداث أخبار نفوسة. فلا ندري هل أذعنتم للمسلمين واعتنقت دينهم وتركت وثنيتها؟ وهل رأيت في الفتح الإسلامي خلاصا لها من الحكم البيزنطي الجائر الذي عانت منه الولايات طيلة وجوده في المنطقة؟ وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلى حملات أخرى تأديبية، لكننا لا نجد أدنى إشارة لأسماء القبائل التي ارتدت ونقضت الصلح. فهناك جرائد خيل أرسلت إلى أطراف إفريقية بأمر من عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان¹³⁷. وحتى في إمارة عقبة بن نافع، تذكر المصادر أن أهل ودان نقضوا العهد، ورفضوا تقديم ما فرضه عليهم بسر بن أرطاة من جزية. كما تشير إلى أنه افتتح بلد مزاتة¹³⁸.

ونعتقد أن نفوسة رأيت في الفاتحين الخلاص من الاضطهاد، ومن مصادرة أراضيهم، وأموالهم، فأسلمت وأذعنتم للفاتحين العرب. وعندما عانت مثل بقية قبائل البربر من جور الولاة الذين تداولوا على حكم بلاد المغرب، رأيت في مبادئ الإباضية مسلكا للانتفاضة، والإطاحة بأولئك الولاة الذين أصبحوا لا يختلفون كثيرا عن عمال الحكم البيزنطي. وتظهر نفوسة كقوة من جديد إبان انتشار دعاة الإباضية فأشعلت الثورة.



137 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص34؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص227؛ أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص65؛ المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951، ج1، ص14؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص67.

138 - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص50-53.

الفاخون لا تتعدى تحصن سكان المدينة خلف الأسوار، ولذلك فإن كانت هناك جُدة فعلا - كما تذكر الروايات - فإنها لم تصل لأن عمرو بن العاص أسرع في إرسال كتيبة من الجيش إلى سبرت (صبراتة) للحيلولة دون وصول النجدة، وعادت دون أن تحقق أي انتصار لأنها وجدت سكان المدينة متحصنين تحصنا منيعا، فشلت الجند في اقتحامه، ولما اقتحم عمرو مدينة طرابلس من ناحية البحر، وتمكن من فتحها أعاد الكرة مرة أخرى، فتمكنت جريدة من الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير من دخولها دون عناء شديد؛ خاصة وأنهم وجدوا الأبواب مفتوحة لانشغال أهلها بإخراج الكراع للمرعى¹³³.

وبعد الاستيلاء على سبرت وتهديم سورها، اتجه عمرو إلى مدينة شروس وهي إحدى حواضر جبل نفوسة فافتتحها، ولا ندري هل تم الفتح صلحا أم عنوة؟ لأن المصادر لا تشير إلى ذلك. ووفق رواية ابن أبي دينار فإن عمرو لما أقام في طرابلس بعث «بسر بن أرطاة» ففتح ودان، وجبل نفوسة¹³⁴. وفي مدينة شروس وصله كتاب أمير المؤمنين بمنعه من مواصلة الفتح ويطلب منه العودة إلى مصر. وبعد رجوعه ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو أهلها وما جاورها من القبائل إلى الإسلام، وتمكن في وقت قصير من نشره بين قبائل لواتة، ونفوسة، ونفزاوة، وهوارة، وزواغة¹³⁵.

وللحفاظ على هذا النجاح اهتم عمرو بإرسال السرايا إلى المنطقة فكان الجند يستحوذون على الغنائم، ويعودون إلى قواعدهم. ولم يكن القصد من هذه الغارات جمع الغنائم - كما يقول بعض المستشرقين - وإنما لإشعار سكان المنطقة بقوة المسلمين، بالإضافة إلى تحسس واستطلاع الأخبار لتهيئة الظروف والاستعداد التام لتكملة الفتوحات في بقية بلاد المغرب، خاصة وأن الخليفة منعه من المجازفة في هذه الربوع¹³⁶.

ويبدو أن طلائع الجند القادمة من مصر إلى شرق إفريقية كان الهدف منها هو إخضاع قبائل البربر القاطنة بمدينة برقة، وطرابلس وضواحيها نهائيا، خاصة وأن المضي قدما إلى إفريقية يحتاج إلى استعداد خاص لأنهم سيواجهون خصما قويا يتمثل في الروم المقيمين في حاضرتهم سببيلة.

133 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص69؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص60؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، (92-442هـ) (711-1031م)، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص23؛ محمد فرج: عمرو بن العاص، ص272؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج1، ص140؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص62؛ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص63.

134 - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، تونس، 1386هـ، ص230.

135 - حسين مؤنس: فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، جدة، 1985، ص37؛ محمد زيتون: المسلمون في المغرب، ص14؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص66.

136 - محمد زيتون: المرجع نفسه، ص14-15.

الفصل الثاني

دخول المذهب الإباضي إلى جبل نفوسة

- 1 - دعاة الإباضية في الجبل.
- 2 - حملة العلم المغاربة.
- 3 - إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي والحارث بن تليد الحضرمي.
- 4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (140-144هـ) (757-761م).
 - أ - تولية أبي الخطاب الإمامة.
 - ب - استيلائه على طرابلس.
 - ج - استيلائه على القيروان.
- 5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية.
- 6 - إمامة أبي حاتم الملزوزي.
 - أ - استيلائه على طرابلس.
 - ب - حصار طبنة والقيروان

1 - دعاة الإباضية في الجبل:

كان فشل الإباضية في تحقيق أهدافهم في المشرق الإسلامي سببا في توجيه أنظارهم إلى الأمصار الإسلامية النائية عن حاضرة الخلافة الأموية في دمشق¹³⁹. فكانت بلاد المغرب إحدى هذه المناطق التي جلبت انتباه أئمة المذهب الإباضي في البصرة. وحظيت باهتمام كبير. ويبدو - وحسب المصادر - أنهم كانوا على دراية وافية بتذمر البربر من عمال بني أمية. فأرسلوا دعواتهم إلى هذه المنطقة لإثارتهم. وبث مبادئهم السياسية. وتعاليمهم الدينية بينهم.

ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ دخول دعاة الإباضية إلى بلاد المغرب. وبالضبط إلى جبل نفوسة. بسبب تضارب الروايات وتباينها. فابن حوقل يقول في حديثه عن الجبل: «والجبل بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيام لهم. وبه معشر الإباضية. والوهبية. ثووا بعد عبد الله بن أباض. وعبد الله بن وهب الراسبي. لأنهما قدما وماتا به. ولم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان. ولا سكنه غير الخوارج منذ أول الإسلام. بل منذ عهد علي عليه السلام وقت انصرافهم عنه بمن سلم منهم من أهل النهروان. وقد أقام من خلفهم على منهاج سلفهم به. وبما قاربه من مدن الخوارج»¹⁴⁰.

139 - ظهر المذهب الإباضي وترعرع في البصرة. ومنها انتشر إلى مختلف الأصقاع. ففي اليمن استطاع عبد الله بن يحيى الكندي أن يؤسس إمامة سنة 129 هـ (747م) غير أن قربه من مركز الخلافة أثار له المتاعب. فقد أرسل إليه الخليفة مروان بن محمد جيشا ألحق به الهزيمة وبصاحبه أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي. أما عمان فقد ظهر فيها المذهب بصورة جلية بعد سقوط إمامة اليمن. إلا أنها لم تنج من بطش جيوش الخلافة العباسية. ومن هنا نلاحظ أن بلاد المشرق لم تكن أرضا خصبة لإثمار المذهب فرأى الدعاة وكبار الأئمة أن المشرق قد ضاق بهم وبدعوتهم فوجهوا أنظارهم إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي. للمزيد من التفاصيل ينظر:

السيابي: طلاقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي. مطابع سجل العرب. 1980. ص71-79: الحارثي: العقود الفضية في أصول الإباضية. عمان. 1983. ص187 وما بعدها: فلهاوزن: أحزاب المعارضة في الإسلام (الخوارج والشيعية). مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. 1968. ص143-145: محمد عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية. مطابع دار الشعب. عمان. 1978. ص116-132: فاروق عمر فوزي: ملامح من تاريخ الخوارج الإباضية. مجلة المؤرخ العربي. منشورات اتحاد المؤرخين العرب. بغداد. 1975. عدد2. ص173 وما بعدها.

140 - ابن حوقل: صورة الأرض. ص93.

كانت تعيش مع الخوارج في واحات مصر. وعندما فر دجية بن المصعب الذي ثار إبان ولاية إبراهيم بن صالح (165-167هـ) (781-783م) التجأ إلى خوارج الواحات. ويحتمل أن هؤلاء البربر هم الذين نقلوا المذهب الخارجي إلى جبل نفوسة. بعد مغادرتهم مصر. وعملوا على نشره بين سكانه. أما الحجّة الثانية - في رأيه - فتظهر جلية في أثناء الخلاف الأول الذي حدث بين الإباضية في الدولة الرستمية. فقد ارتحل أحد علماء الإباضية وهو الربيع بن حبيب¹⁴⁹ مسرعاً إلى تاهرت لفض النزاع. وهذا يدل على وجود اتصال بين رجال المذهب قبل ذلك، ثم إن الكندي يذكر أن والي مصر «غوث بن صالح» (140-144هـ) (757-761م) اتهم بمراسلة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري. والظاهر أن خوارج مصر لم تكن لهم قوة كافية بحيث يثورون. فكان من نتيجة ذلك أن انضوا في مختلف واحاتها. ويحتمل أن يكون فشل دعوتهم في مصر سبباً في نقلها إلى بلاد المغرب¹⁵⁰.

هذا ومع قناعتنا بأن انتقال الأفكار من بلد إلى آخر أو انتشار المذاهب الدينية من الصعب تحديده تاريخياً لأنها تنتشر تدريجياً. وتتسرب ببطء شديد إلا أننا نرجح ما ذكره ابن خلدون حيث قال: «لم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس... وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها. ولقنوها من العرب الناقلة من سمعها بالعراق»¹⁵¹. فبعد سنة 95هـ (713م) شهدت حركة الدعوة نشاطاً كبيراً كلل بالنجاح. ولا نشاطر أحمد الطاهر الزاوي الرأي عندما حدد أول دخولهم إلى إفريقية سنة 120هـ (737م). وهو في الوقت نفسه يذكر في موضع آخر بأن ظهور دعوتهم قد اقترب بقتل يزيد بن أبي مسلم سنة 102هـ (720م)¹⁵².

تذكر المصادر أن أول من جاء يدعو إلى المذهب الإباضي سلمة بن سعد. الذي أرسله الإمام أبو عبيدة مسلم¹⁵³ من البصرة. قدمها مصحوباً بعكرمة مولى ابن عباس¹⁵⁴ على

149 - هو أبو عمرو الربيع بن حبيب بن عمرو من تلامذة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجابر بن زيد. تولى رئاسة الإباضية بالبصرة بعد وفاة أبي عبيدة. ويعتبر مسنده من أهم كتب الحديث المعتمدة لدى الإباضية إلى يومنا هذا. ينظر: السيابي: طلاقات المعهد الرياضي. ص30.

150 - ينظر: الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة). ط1 (بلا مكان للطبع). 1973. ص30-32.

151 - ابن خلدون: العبر. ج7. ص110.

152 - ينظر: تاريخ الفتح العربي. ص103-105.

153 - هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم. كان مولى لعروة بن أديبة التميمي أخ مرداس بن أديبة. عاش في مدينة البصرة وأخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبيدي وجعفر بن السماك وصمام بن السائب العبيدي العماني. وهم أبرز علماء وفقهاء الإباضية في مرحلة الكتمان. ويذكر أن أبا عبيدة أدرك بعض الصحابة منهم: أنس بن مالك. أبو هريرة. عبد الله بن عباس. أبو سعيد الخدري. وعائشة أم المؤمنين. ينظر: الشماخي: السير. ص83-84: خليفات: نشأة الحركة الإباضية. ص103.

154 - هو أحد المفسرين المشهورين اشتهر بعلمه واجتهاده. قيل إنه بربري الأصل اشتراه ابن عباس فتلمذ على

إن هذه الرواية مشكوك فيها لأن عبد الله بن وهب الراسبي¹⁴¹ قتل في معركة النهروان¹⁴². ولا يستبعد أن يكون بعض من فروا بعد هذه المعركة قد التجأوا إلى جبل نفوسة. ولكنهم لم يتركوا أثراً واضحاً. ذلك أن الانتشار الحقيقي والمكثيف للمذهب الإباضي يعود إلى أواخر القرن الأول. وأوائل القرن الثاني للهجرة¹⁴³ فالإدريسي يقول: «وأهل جبل نفوسة كلهم إسلام. لكنهم خوارج نكار. على مذهب ابن منبه اليماني»¹⁴⁴. وإذا كان هذا الأخير يعتبر سكان الجبل خوارج نكاراً. فإن ياقوت الحموي يذكر بأن جميع سكانه شراة وهبية وأباضية¹⁴⁵. كما يذكر اليعقوبي بأن أهله أباضية. كلهم دون تمييز بالإضافة إلى قبائل مزاتة. وسكان زويلة¹⁴⁶.

ولا يستبعد أن يكون قدوم دعاة الإباضية إلى بلاد المغرب قد حدث قبل هذا التاريخ. أي أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). خاصة إذا عرفنا أن دخول أتباع المذهب إلى مصر كان قبل هذا التاريخ بكثير. فلعل دخولهم إليها كان بعد سنة 78هـ (697م). ففي هذه السنة فرق الحجاج بن يوسف الثقفي شمل الخوارج في العراق. ولربما وصلوا إلى المغرب أيضاً¹⁴⁷. ويرى رفعت فوزي عبد المطلب أن لمصر دوراً هاماً في نقل المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب. فقد انتقل الخوارج إلى مصر في عهد مسلمة بن مخلد (47-62هـ) (668-681م).¹⁴⁸ وقاموا بعدة ثورات بها. ويعلل قوله بأن هناك جماعات من البربر

141 - عبد الله بن وهب الراسبي شخصية معروفة في التاريخ الإسلامي عرف بالزهد والعبادة حتى لقب بذئ الثقات. أختير إماماً لأهل النهروان بعد خروجهم على علي بن أبي طالب. أدرك النبي (ص) وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص. وكان من جملة الذين حضروا التحكيم بين علي ومعاوية. وقتل في معركة النهروان سنة 38هـ.

ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ. ج2. ص201-202: السيابي: طلاقات المعهد الرياضي. ص21.

142 - هي معركة دارت رحاها بين جيش علي وجيش الخوارج في منطقة النهروان بعد خروج هؤلاء على علي كرم الله وجهه. وكانت قواتهم لا تتجاوز أربعة آلاف مقاتل انشق منها في بداية القتال حوالي النصف واشتبك الباقون مع جندعلي. فقتل من زعمائهم عبد الله بن وهب الراسبي وزيد بن حصين حرقوص بن زهير. ينظر: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص201-202: محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط2. القاهرة. 1954. ص14.

143 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي. دار العودة. بيروت. 1976. ص36.

144 - ينظر: القارة الإفريقية. ص200.

145 - ينظر: معجم البلدان. مج8. ص305.

146 - ينظر: صفة العرب. ص4-6.

147 - T. Lewicki: Ibaddiyya, E.I, p5859.

148 - هو مسلمة بن مخلف بن صامت بن نيار بن لوزان بن عبدو بن يزيد بن ثعلبة. ولاء معاوية بن أبي سفيان على مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهني سنة 47هـ (668م). ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. 1965. ج3. ص466: ابن شغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مطابع كوستانتسوماس القاهرة (د.ت). ج1. ص132.

راحلة واحدة. وكان هذا الأخير يدعو إلى المذهب الصفري.¹⁵⁵ غير أن علي يحي معمر ينفرد بالقول بأنه جاء منفردا. فلم يصحبه في انتقاله من الجزيرة إلى العراق ومنه إلى إفريقية إلا إيمانه بصحة العقيدة.¹⁵⁶ وهو الرأي الذي نرجحه. ذلك أننا لا نجد ذكرا لسلمة بن سعد في ترجمة عكرمة في كتاب أبي العرب. ولم تذكر المصادر أنه انتقل في البلاد يدعو إلى الصفرية. وإنما تذكر أنه امتهن التعليم في القيروان. وكان مجلسه في مؤخرة المسجد الجامع. في غربي المنارة في الموضع الذي يسمى بـ «الركيبيية» ثم غادرها عائدا إلى المشرق. وتوفي في المدينة بين سنتي 104 و108هـ (722-727م).¹⁵⁷ ومعنى هذا أن عكرمة دخل القيروان في أواخر القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). وإن صح قدمه مع سلمة! فيمكن أن نحدد تاريخ دخول الإباضية إلى بلاد المغرب عامة وجبل نفوسة خاصة إلى التسعينات من القرن الهجري وهو التاريخ الذي حدده ابن خلدون.

ومهما يكن من أمر فقد مكن سلمة بن سعد لمذهبه الانتشار في جبل نفوسة وطرابلس. فكان ينتقل في الجبال والصحاري مبتعدا عن مقر الولاة. فنزل نفوسة. ودمر. نفزاوة. وما جاورها وهي المناطق التي أصبحت فيما بعد تضم جماعات إباضية كبيرة. وما سهل له المهمة أنه في كل منطقة يحل بها يكون فيها أتباعا يخلفونه عند مغادرته لها.¹⁵⁸ فاعتنقت المذهب قبائل عديدة أهمها: نفوسة. وهوارة. ولماية. وزناتة. وسدراتة. وزواغة. ولواتة. ونفزاوة. ومغيلة.¹⁵⁹ وتذكر المصادر أن سلمة بن سعد كان يدعو إلى مذهبه بحماس. ولعل قوله: «وددت لو يظهر هذا الأمر يوما واحدا ولا أبالي أن تضرب عنقي» لدليل على ذلك. فنجح في كسب عدد كبير من الأتباع المخلصين. الذين رفعوا رايات المذهب في هذه البلاد. كما أن سلمة كان يختار النابغين من لهم ميل إلى العمل الجاد من أجل المبادئ التي آمنوا بها. وسنرى فيما بعد أنه يختار جماعة من البربر ليرسلهم إلى البصرة. لتلقي تكوين مذهبي لدى إمام المذهب أبي عبيدة مسلم.¹⁶⁰

يديه وأصبح من كبار العلماء. دخل إفريقية في زمن بني أمية واستقر بالقيروان حيث كان له مجلسا يجلس فيه في مؤخرة المسجد الجامع في غربي المنارة في الموضع الذي يسمى الركبيبيية. ينظر: أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس. ص 82-83: محمد علي دبون: تاريخ المغرب الكبير. ج 2. ص 280.

155 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 42.

156 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص 26.

157 - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية. ص 83: المالكي: رياض النفوس. ج 1. ص 92.

158 - عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية. الدار التونسية للنشر. ط 2. تونس. 1985. ص 111.

159 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي ص 159: بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية (160-296هـ) (777-909م). دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. مطبعة لافوميك. ط 1. الجزائر. 1985. ص 63.

160 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 288-289.

ويبدو أن عدد الدعاة كان كبيرا لأن الأمان عند البربر كان مضمونا لهم. ولعل أوضح صورة لهذه الدعوة هي التي صورها ابن الأثير بقوله: «فلما دب إليهم أهل العراق استثاروهم قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال. ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا: لهم: لانتقبل ذلك حتى نخبرهم»¹⁶¹.

وبما أن البربر كانوا ساخطين على الحكم العربي. فقد رحبوا بالدعاة وحموهم. وسهلوا لهم مهمتهم. فكثرت وفودهم وركزوا دعوتهم في منطقة طرابلس. وجبل نفوسة. والمغرب الأقصى لابتعاد هذه المناطق عن القيروان من جهة. ومن جهة أخرى فإن إقليم طنجة. ونواحي السوس الأقصى. كانت مواطن ثلاث قبائل تعد من أكبر القبائل الزناتية الأكثر استعدادا للثورة وهي: غمارة. برغواطة. مكناسة. وانضمت إليها أعدادا من صنهاجة.¹⁶²

ونشير في هذا المضمرة إلى أن هناك من يعتقد بأنه لا يوجد دليل واضح على صفرية الدعاة. أو إباضيتهم. ويفضل تسميتهم «خوارج» فحسب. لا خوارج سياسيين ولا دينيين. فالدكتور حسين مؤنس يذكر بأنه لا يعرف بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين. ولا السبب في إقبال المغرب عليها. ففي رأيه أن مبادئ هاتين الفرقتين ليست مما تجتذب البربر. فالصفرية. والإباضية. هما أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين. ونعرف أن الإباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين. ولا تستحل الغنائم عدا السلاح والخيل. وحسب رأيه دائما فإن البربر لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد. ويشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية.¹⁶³

ويرى «ألفرد بل» أن دعاة الخوارج كانوا خير رسل للإسلام في بلاد المغرب. فقد جاءوا من بلادهم ليدعوا البربر إلى الثورة. ويسري في قلوبهم إيمان عميق ألهم أعمالهم وأقوالهم. وكانوا يدعون باسم الدين والدين وحده. وهذا يتوافق مع مزاج البربر المستقل المتدين. وأدرك البربر أنهم لا يستطيعون أن يكونوا ثوارا صادقين إلا إذا كانوا مؤمنين صادقي الإيمان بالمذهب الذي كانوا يدعون إليه. فسعوا لتحصيله بقدر ما مكنتهم لذلك وسائلهم. وهكذا نشأ البربر في ثقافة إسلامية تتوافق مع مزاجهم وهي ثقافة الخوارج.¹⁶⁴

161 - ينظر: الكامل في التاريخ. ج 3. ص 45.

162 - حسين مؤنس: فجر الأندلس. ص 164.

163 - المرجع نفسه. ص 149.

164 - ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. ترجمة: عبد الرحمن بدوي.

والرأي عندي أن ثورات البربر جاءت نتيجة لتحريض الإباضية والصفيرية هذا، وإن كنا لا نستطيع أن ننفي وجود بعض أفراد الفرق الخارجية في صفوف الإباضية، إلا أننا وبمراجعة للنتائج التي تمخضت عنها هذه الثورات، فإننا نلاحظ قيام دولة صفيرية المذهب، هي دولة «بني مدرار» سنة 140هـ (776م)، ودولة إباضية المذهب هي الدولة التي أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي سنة 160هـ (776م).

2 - حملة العلم المغاربة:

كان من بين المغاربة الذين أرسلهم سلمة بن سعد إلى البصرة لأخذ العلم من إمام المذهب، عبد الحميد بن مغطير الجناوني. فقد ظل هذا الأخير مدة من الزمن في البصرة يتلمذ عند أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ثم عاد إلى طرابلس، فعكف على التعليم والفتوى في جبل نفوسة، وساهم بدوره في نشر مبادئ المذهب بين بربر هذه المنطقة، وأصبح الجبل دار هجرة للإباضية¹⁶⁵. كما لعب عمر بن يكتن دورا هاما في التمكين للمذهب في هذه الربوع، فهو الذي أبرز أهميته الثقافية فبنى لأول مرة في قرية «إفاطمان» بجبل نفوسة مدرسة لتعليم أبناء المنطقة القرآن الكريم، وأصول المذهب. وتعدده المصادر الإباضية أول من علم القرآن بالجبل، وقد تعلمه هو في طريق مغمداس¹⁶⁶، حيث كان يمر به المتنقلون من المشرق إلى المغرب والعكس، فيكتب عنهم لوحة من القرآن ثم يعود إلى منزله، فإن حفظها عاد ثانية إلى الطريق وكتب غيرها، وظل على هذا النحو إلى أن حفظ القرآن كله، وهذا يدل على رغبته الشديدة في تحصيل القرآن لقللة المعلمين وندرة المصاحف في ذلك العصر¹⁶⁷.

أما البعثة العلمية التي أرسلها سلمة بن سعد إلى البصرة، والتي كان لها الدور الفعال في نشر المذهب هي البعثة التي يعرف أصحابها بـ«حملة العلم المغاربة» أو «حملة العلم الخمسة». تكونت هذه البعثة من: عبد الرحمن بن رستم، وعاصم بن جميل السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وأبي داود القبلي النفاوي. فقد حدث أن التقى عبد الرحمن بن رستم بالداعية دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص147.

165 - الشماخي: السير، ص143: محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص44: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص27-28.

166 - هي مدينة تبعد عن برقة وقصور حسان بمرحلة، ومغمداس هو صنم قائم على شاطئ البحر حوله أصنام، وبه قصر بناه الأعرابي عامل سرت لبني عبيد الله، ومغمداس التقى أبو الأحوص عمرو العجلي -كما سنبين لاحقا- مع أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 142هـ (759م) ينظر: البكري: المغرب، ص7.

167 - الشماخي: المصدر السابق، ص142: موسى لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص16.

سلمة، فراقه كلامه وأعجبه فدلّه قائلا: «يا فتى إن كنت تريد علم هذا الأمر الذي كلفت به وعلقت به بالك فدونك أرض البصرة، فإن بها عالما يكنى أبا عبيدة واسمه مسلم بن أبي كريمة التميمي، فإنك تجد عنده ما تطلبه»¹⁶⁸.

واجه عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة مع رفقائه الأربعة، وعند وصولهم رحب بهم وسألهم عن بلادهم، فأخبروه بأنهم من المغرب، وأنهم جاءوا لأخذ العلم، فظلوا يتعلمون عنده عدة سنوات، وكان أبو عبيدة يعلم تلاميذه في سرية تامة خوفا من أمراء البصرة¹⁶⁹.

وكانت الدروس التي يتلقونها في حلقة أبي عبيدة متنوعة، فشملت مختلف العلوم، ويرى الدكتور محمود إسماعيل أنها كانت في الأصول، والفروع، والسير، والتوحيد، والشريعة، وعلوم اللغة، والفلك، والرياضيات، ويضيف بأن هذه الدروس لم تقتصر على العلوم الدينية فحسب، بل كانت فنون الحكم والسياسة وقد أخذت حيزا لا بأس به، وأن التلاميذ كانوا إلى جانب تكوينهم الديني يتكفونون سياسيا لتولي المسؤولية وتقلد المناصب، وبما أنهم سيصبحون في المستقبل دعاة للمذهب فقد علموا تعليما جيدا لتأدية الرسالة على أحسن وجه، وضم أكبر عدد ممكن من المسلمين إلى صفوفهم¹⁷⁰.

ونعتقد أن أعضاء البعثة كانوا يتلقون مبادئ المذهب الإباضي، والآراء التي خالفوا فيها بقية الفرق، وأساليب الإقناع، والاستمالة، والأحكام، والتفسير، والسير، ودليلنا على ذلك أنه قبيل مغادرتهم البصرة سأل إسماعيل بن درار الغدامسي شيخه عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام¹⁷¹، أما العلوم الأخرى كالأصول، والفروع، والفلك، والرياضيات، وفنون الحكم، والسياسة، فلم تأسس بعد علميا ولذلك فإننا نستبعدنا.

ولما عزم حملة العلم المغاربة مغادرة البصرة والعودة إلى بلدهم كلموا شيخهم أبا عبيدة واستشاروه في إقامة إمامة في بلاد المغرب إذا ما أنسوا من أنفسهم قوة، ويذكر أبو زكريا بأنهم قالوا له: «يا شيخنا إن كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا من أنفسنا طاقة أفنولي على أنفسنا رجلا منا أو ما ترى؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم فإن يكن في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال

168 - البغطوري: سير نفوسة (مخطوط)، ورقة 2: الشماخي: السير، ص124: أبو زكريا: كتاب السير، ص57: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص20: محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم، ط2، الكويت، 1987، ص81.

169 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص36.

170 - ينظر: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص43.

171 - الشماخي: السير، ص124.

فولوا على أنفسكم رجلا منكم فإن أبي فاقتلوه»¹⁷². وأشار إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري. وعندما وصلوا إلى طرابلس واستقروا بها. وساهموا بدورهم في تنشيط الدعوة وأصبحوا علماء للمذهب. انقطع عبد الحميد بن مغطير الجناوني عن الفتوى وحجته في ذلك أن حملة العلم هم أولى بالفتوى. لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال¹⁷³.

وهكذا نلاحظ أن الدعاة استطاعوا نشر مذهبهم في بلاد المغرب في مدة زمنية قصيرة. فلم يمض على قدومهم عشرون سنة حتى أصبحت الإباضية أكثر المذاهب انتشارا بين قبائل البربر. هذه القبائل التي عكفت على دراسة تعاليم المذهب فأعجبوا بمقالات أصحابها. خاصة المقالات التي تدعو إلى المساواة والتي لم يحس بها البربر. وكانت السبب في اعتناق البربر لمذهب الإباضية. لا مندوحة إذن أن تلقى الإباضية إقبالا كبيرا عند البربر. فانتشرت بين قبائل كثيرة أهمها «نفوسة» فابن رسته يصف سكان جبل نفوسة موطن هذه القبيلة بقوله: هم قوم عجم الألسن إباضية كلهم¹⁷⁴. ويذكر ياقوت الحموي بأن كل نفوسة شرارة وهبية وإباضية متمردون على طاعة السلاطين¹⁷⁵. كما انتشرت بين قبائل مزاتة. فاليقوبي يقول: ومزاتة كلها إباضية على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين¹⁷⁶. ويبدو أن قبائل مزاتة انقسمت إلى قسمين: قسم تمذهب بالإباضية وقسم أخذ بالواصلية¹⁷⁷. ويؤكد ذلك ابن حوقل بقوله: «وتجاورهم - أي سكان جبل نفوسة - من البربر زناتة. ومزاتة قبيلتان عظيمتان الغالب عليهما الاعتزال من أصحاب واصل بن عطاء»¹⁷⁸.

كما انتشرت بين قبائل هوارة. لواتة. مكناسة. مطماطة. لماية. نفاوة. مغيلة. مغراوة. بني يفرن. وزواغة¹⁷⁹. وتجدر الإشارة إلى أن جبل نفوسة قد لعب دورا كبيرا في نشر المذهب فإلى سكانه يعود الفضل في نشره بين القبائل البربرية. ولتدعيم هذا

172 - ينظر: كتاب السيرة، ص 60.

173 - الشماخي: المصدر السابق، ص 143؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 28.

174 - ينظر: الأعلام النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، 1891، مج 7، ص 346.

175 - ينظر: معجم البلدان، مج 8، ص 305.

176 - ينظر: صفة المغرب، ص 5.

177 - هي فرقة تنسب إلى واصل بن عطاء مولى بني مخزوم. وقيل مولى بني ضبة. ولد سنة 80هـ بالمدينة وتوفي سنة 131هـ. وواصل هذا هو رأس المعتزلة، فلما كثرت الخوارج مرتكب الكبيرة قال واصل بل فاسق لا مؤمن ولا كافر فهو في منزلة بين المنزلتين. ولذلك اعتزل حلقة الحسن البصري رفقة عمرو بن عبيد. ومن يومها سمي أتباعه بالمعتزلة. ينظر: ابن تغري يردى: النجوم الزاهرة، ج 1، ص 313-314.

178 - ينظر: صورة الأرض، ص 94.

179 - ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 121؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 108 بحاز الدولة الرستمية، ص 63.

الانتشار مر بنا أن سلمة بن سعد أرسل من كل جهة رجلا يتعلم تعاليم المذهب. فمن غدامس (جنوب الجبل) أرسل إسماعيل بن درار الغدامسي. ومن نفاوة أرسل أبا داود النفزاوي. ومن الأوراس عاصم السدراتي. ومن القيروان عبد الرحمن بن رستم¹⁸⁰.

وإذا بحثنا عن أي فريق من البربر نهض يساند حركة الخوارج، فإننا نجد أن قبيلة زناتة هي التي قدمت الدعم للإباضية والصفورية. ذلك أن زناتة وبطونها مثل «غمارة، برغواطة، مكناسة». كانت أكثر استعدادا للقيام بالثورة. وهي النتيجة التي توصل إليها «جوتيه» الذي قام بتحليل التركيبة البشرية التي تشكلت منها الحركة. فتبين أن الذين قاموا بها كانوا في الغالب زناتيين. ففي رأيه أن الثورة انفجرت في البداية في «طنجة» بالمغرب بالأقصى. ثم امتد لهيبها إلى القيروان. ومن خلال تتبعه لمعارك البربر مع الجيوش العربية لاحظ أن مواقعها هي مواطن زناتة. فموقعة الأشراف وقعت قرب مجرى نهر الشلف سنة 122هـ (739م). ووقعت المعركة الثانية وهي موقعة بقدورة على نهر «سبو» سنة 124هـ (741م). ووقعت الثالثة عند «القرن» قرب القيروان سنة 125هـ (742م). أما الرابعة فكانت في جنوب إفريقية وفيها استولى الخوارج على مدينة طرابلس. فكل هذه المراكز هي مواطن زناتة¹⁸¹.

ونؤيد «جوتيه» في رأيه خاصة وأن ابن عذارى. وابن خلدون يتفقان في القول في أن برغواطة، ومغيلة، وهوارة، وبني يفرن، هم السباقون إلى تعبئة الحركة الخارجية الأولى¹⁸². ويرى حسين مؤنس أن هذا التحليل مقبول. خاصة وأن زناتة آزرَت المسلمين أملا أن تنتصف بهم على الروم، والنصارى، والأفارقة، وصنهاجة، لكن آمالها خابت، ما جعلها تقبل على الأخذ بمبادئ الإباضية والصفورية للانتقام من العرب¹⁸³.

والحقيقة أن البربر أعجبوا بالنظريات الإباضية خاصة نظرية الإمامة، لأن الإباضية لا يشترطون أن تكون الخلافة في قريش. بل ولا في العرب عامة، وهم بذلك لا يختلفون عن فرق الخوارج، وفي رأيهم أن كل من اتقى الله كان أحق بها ولو عبدا حبشيا، ودسوا مع هذا المبدأ بعض تشديداتهم وتعمقاتهم. فظهر للبربر أن تعمقهم ذلك إنما هو زيادة في الخشية من الله، وأن ذلك هو التقوى الذي أمر به الشرع¹⁸⁴.

180 - الشماخي: السير، ص 124؛ الحارثي: العقود الفضية، ص 184؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 44؛ الزاوي: المرجع نفسه، ص 158.

- E.F Gautier: Les Siècles Obscurs Du Maghreb, Payat, 1952, p262264- 181

182 - ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 52-53؛ ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 221.

183 - ينظر: فجر الأندلس، ص 113.

184 - السلاوي: الاستقصاء، ج 1، ص 60.

والملاحظ أن أعداد الموالي لم تكن كثيرة في صفوف الخوارج، وقد كثر عددهم عندما أسرف بنو أمية في اضطهاد الموالي وإذلالهم، وبما أن المذهب الإباضي كان ينادي بالثورة على الجور ومثليه من الولاة فقد وجد البربر في اعتناقه مبررا لثورتهم على الحكم العربي. والشيء المؤكد أن بلاد المغرب كانت أكثر المناطق تهيئا للثورة، لأنه بعد أن تم الفتح الإسلامي فيها برزت جميع الخلافات السياسية، والمذهبية التي كانت بين العرب ببلاد المشرق بصورة أعنف. وانتقلت هذه الخلافات من المشرق إلى المغرب. ولما تمت عملية الفتح في الأندلس ومشاركة البربر بكثرة جعلت رد فعل البربر عنيفا ضد السياسة العربية، وضد المظالم التي تعرضوا لها من بعض الولاة.

ويرى صالح مصطفى مفتاح بأنه على الرغم من أن مبادئ وعقائد الخوارج تتميز بالغلو إلا أنها نجحت بسهولة في بلاد المغرب أكثر من المناطق الأخرى، وأن سبب ذلك يعود إلى طبيعة البربر التي تتسم بالعنف. إضافة إلى ذلك أن البربر كالفرس من أكثر الشعوب الإسلامية تأثرا بالدعوات السياسية المناهضة للأمويين¹⁸⁵.

ولا نتفق مع الأستاذ صالح مصطفى فيما ذهب إليه من وجهين:

أولاً:

إنه يجب التمييز بين الإباضية وبقية الفرق الخارجية، لأن الفرقة الإباضية ليست فرقة غالية ومتطرفة، فمبادئها وأراءها السياسية دليل على ذلك.

وثانياً:

إن الفرس يختلفون على كل فرق الخوارج لأنهم ساندوا وتبنوا هذه الدعوات لا رغبة في الإصلاح أو تقويم سلوك الخلفاء والأمراء، بل رغبة في السيطرة على الحكم. فالفرس ثاروا ضد العرب عامة وما لبثوا أن ثاروا ضد الإسلام نفسه بإحيائهم لمعتقداتهم القديمة.

ولم يكتف بعض المؤرخين بتشبيه البربر بالفرس بل اتهموا الإباضية بأنها حركة شعبية كانت تطمح إلى تأسيس دولة إسلامية غير عربية، فاستغلت الدين حتى لا يفهم أنها ضد العنصر العربي. فشعبوية الإباضية - كما يرى الشيخ بكري - تظهر في صورة جليلة أثناء تأسيس الدولة الرستمية من قبل الفرس، فهم الذين ظلوا يديرونها

185- ينظر: بركة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1976، ص55-56.

ويتحكمون فيها. بالإضافة إلى هذا أن المصادر الإباضية تحتوي على أحاديث نبوية هي نفسها التي استعملها الشعوبيون في المشرق والتي تظهر فضائل الفرس والبربر¹⁸⁶.

ويرى البعض الآخر أن البربر دخلوا الإسلام رغبة في الحصول على الغنائم، ولما لم يغير شيئاً من حياتهم أخذوا بمذهب الإباضية والصفرية. فالبربر - حسب جيفر - تغلبت المصلحة في إسلامهم على الإقناع. لأن العرب عمدوا إلى تجنيدهم في جيوشهم فأسلموا طمعاً في الغنائم¹⁸⁷.

كما أن أرنولد توماس هو الآخر قال بشكلية إسلام البربر. ويرى بأن هذا الدين الجديد لم يرسخ بين البربر إلا بعد أن أخذ شكل حركة قومية، وأصبح مرتبطاً بتوليهم الحكم في الدول التي أنشأوها. وهذه الدول هي التي دخل في عهدها البربر إلى الإسلام. أما قبل ذلك فكانوا يعدون قبول الإسلام رمزا على ضياع استقلالهم السياسي¹⁸⁸.

ومهما يكن من أمر فنحن نستبعد نزعة البربر المادية أو الرغبة في الوصول إلى المناصب، فلو كان البربر كذلك لماذا أعادوا محمد بن يزيد واليا عليهم بعد قتلهم ليزيد بن أبي مسلم¹⁸⁹، فلما كانوا فعلاً يهدفون إلى الاستيلاء على الحكم لنصبوا واحدا منهم، بل جدهم يرسلون إلى الخليفة الأموي يزيد يعتذرون له، ويبلغونه ما قاموا به، وإذا كان الإسلام يحتاج إلى عدة قرون على حد قول أرنولد توماس لنشره بين البربر، فيماذا نفسر قول عبد الرحمن بن حبيب: «إن إفريقية الآن إسلامية، وقد انقطع السببي...»¹⁹⁰.

186 - Cheikh Bekri: Le Kharredjisme Berbère, Extraits Des Annales De L'institut d'étude Orientales (Alger), 1957, T 5, p5859-.

187 - رفعت فوزي: الخلافة والخوارج، ص32-33.

188 - أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مطبعة الشيكني، القاهرة، (د.ت)، ص266-267.

189 - هو يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وصاحب شرطته وكتابه. كان إنساناً ظالماً حل بإفريقية سنة 102، وسار سيرة الحجاج في المشرق فثار به حرسه وقتلوه، لأنه أراد أن يفرق بين حرسه وبين بقية البربر بأن يشتم في أيديهم كلمة «حرسى» ليميزهم بذلك عن عداهم، فأدى ذلك إلى غضبهم لأنهم رأوا أنه شبههم بالحيوانات التي توشم جلودها لتتميز. ينظر: ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1963، ج1، ص88؛ المسعودي: الخلاصة النقية، ص13؛ السلاوي: الاستقصاء، ج1، ص46؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج1، ص245؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص103.

190 - المسعودي: المصدر نفسه، ص16.

3 - إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد

الحضرمي:

رأينا فيما سبق أن أول ثورة خارجية مغربية كانت صفرية المذهب. اندلعت في طنجة وامتد لهيبتها إلى مناطق أخرى. أما الإباضية فقد تأخرت ثوراتهم نوعا ما. لأن تركيزهم كان قريبا من القيروان مقر الإمارة. ومركز الجند العربي وقريبة نسبيا من عاصمة الخلافة وولاتها في مصر. ولما نجحت ثورات الصفرية في المغرب الأقصى حفز ذلك الإباضية على التعجيل بالظهور. فقد تزعم التجمع الإباضي في منطقة طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي الذي اعتمد على قبيلة هواره. والتي كانت تسيطر على المنطقة التي تقع شرق هذه المدينة إلى سبخة تاورغا. فلما قام الإباضية بتوليته الإمامة. خشي عبد الرحمن بن حبيب خطر هذه الإمامة فولى أخاه إلياس بن حبيب عاملا على طرابلس. فتمكن هذا الأخير من قتل إمامهم¹⁹¹.

ويبدو أن إلياس قام بذلك لإثبات هيئته بين الإباضية وليرزع في قلوبهم الذعر حتى لا يحاولوا الانفصال عن الإمارة. لكن هذا العمل جعلهم يطالبون عبد الرحمن بدم أخيه. ولتهدئة الأوضاع اكتفى بعزله؛ وتولية حميد بن عبد الله العكي مكانه¹⁹².

ولما لم يتحقق مطلبهم قاموا بتولية الحارث بن تليد الحضرمي سنة 130هـ (748م). يؤازره عبد الجبار بن قيس المرادي. فقاما بشن حصار على العامل الجديد وخبروه بين البقاء أو مغادرة طرابلس. فغادرها بعهد وأمان. لكن عبد الجبار قام بقتل نصير بن راشد أحد أصحاب حميد أخذا بنار قتلهم. ثم استولى على بلاد زناتة. ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن بن حبيب ولى يزيد بن صفوان المعافري على طرابلس. وأرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى هواره. يدعوها للوقوف في صفه. لكنه طرد بعد أن أقام عندهم شهرا. والتحق بيزيد بن صفوان وفي هذه الأثناء أرسل عبد الرحمن جيشا يقوده محمد بن مفروق. وكتب إلى يزيد يأمره بالخروج معه. فكان النصر حليف الإباضية حيث قتلوا كلا من يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق. أما مجاهد بن مسلم فقد فر إلى هواره بعد أن هزمه الإباضية. ولما فشلت كل هذه المحاولات عزم عبد الرحمن بن حبيب على الخروج بنفسه. فجمع قواته وزحف على الإباضية. لكنه مني هو الآخر بالهزيمة. وكان

191 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي. ص62؛ إحسان عباس. تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9هـ. ط1. بيروت. 1967. ص43.

192 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية. ص106؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي. ص128.

من نتيجة ذلك أن سيطر الإباضية على منطقة طرابلس كلها. خاصة بعد القضاء على الحملة التي قادها عمرو بن عثمان ومجاهد بن مسلم¹⁹³.

لم يأس عبد الرحمن بن حبيب على الرغم من كل هذه المحاولات الفاشلة. لأن القضاء على الإمامة الإباضية كان ضرورة حتمية. لأنها ستقطع صلة الشام والمشرق عامة بالمغرب. فيصبح في عزلة تامة لا تأتيه الإمدادات في حالة ثوران المغرب كله. وفي هذه الظروف غير من استراتيجيته القتالية بالتجائه إلى الحيلة للتخلص من هذا الخطر الذي يهدده. فأثر بث الشقاق والخلاف بين الإباضية. عندما أوعز إلى شخصين مهمة قتل عبد الجبار. والحارث. وعندما تمكنا من ذلك جعلنا مقبضي سيفهما متقابلين وكأن عبد الجبار والحارث تقاتلا. حينئذ انقسمت الإباضية إلى فريقين: فريق رأى التبرئة من القتلين. والفريق الآخر خالف ذلك. لأنه لا يعرف بالضبط الباغي منهما حتى يتبرأ منه¹⁹⁴.

وحولت هذه المسألة للمشرق للإفتاء فيها من قبل علماء المذهب. فدعاهم الإمام أبو عبيدة وحاجب الطائي إلى عدم ذكرها تجنباً للخلاف¹⁹⁵. ولكن الشقاق ظل موجودا حتى قيام الإمامة الخطابية سنة 140هـ (757م). بل حتى إلى عصر أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي - أي القرن الخامس الهجري (11م)¹⁹⁶. ولذلك فإننا لا نستبعد أن يكون مقتل الحارث وعبد الجبار كان نتيجة لخلافات داخلية لا علاقة لها بعبد الرحمن بن حبيب.

وفي خضم هذه الأحداث تولى إسماعيل بن زياد النفوسي الإمامة سنة 132هـ (750م) ولقب بـ «إمام دفاع». فحاول جمع شمل أتباعه لكن دون جدوى. مما سهل لعبد الرحمن القضاء على إمامته بعد مدة قصيرة. حيث خرج إسماعيل متجها إلى مدينة «قابس» فالتقى الجيشان وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وعدد كبير من أفراد جيشه. ثم آتاه عبد الرحمن إلى طرابلس ففتحها وولى عليها عمرو بن سويد المرادي¹⁹⁷.

وعاد عبد الرحمن إلى القيروان سنة 132هـ (747م) بعد أن حقق ما كان يصبو إليه. إلا أن الجو تعكر بينه وبين أخيه إلياس. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه كان يرسل إلياس لقتال البربر كلما حقق انتصار نسبه لابنه حبيب. فاستغل إلياس فرصة مرض أخيه وطعنه بسكين بين كتفيه. أنهت حياته. واستولى على السلطة سنة 137هـ (754م)¹⁹⁸.

193 - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه. ص106 108؛ موسى لقبال: المرجع نفسه. ص128.

194 - الدرغيني: طبقات المشائخ. ج1. ص24؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي. ص168.

195 - الشماخي: السير. ص125.

196 - الدرغيني: المصدر السابق. ج1. ص153.

197 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية. ص108؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي. ص171.

198 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص67؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج1. ص332.

أبو الخطاب على ذلك، وخيروه بين البقاء أو المغادرة فاختر الأخيرة. وسلم لأبي الخطاب مفاتيح بيت المال²⁰¹.

وباستيلاء أبي الخطاب على طرابلس، اشتد ساعد الإباضية وعظمت شوكتهم، فاتخذ طرابلس عاصمة لإمامته، وشرع في تعيين العمال على النواحي، فولى كلا من عمر بن يمكتن الأفطمانى على سرت، وعبد الرحمن بن رستم على القيروان، وأرسل إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة يخبره بقيام الإمامة، فاغتبط لذلك وأوصاهم بالعمل على المحافظة على التضامن، واقتفاء أثر السلف الصالح²⁰².

ج - استيلاؤه على القيروان:

بعد أن قتل عبد الرحمن بن حبيب، حارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه إلياس، وتكونت لكل نفر منهم شيعة، فاضطربت البلاد وكثرت الحروب ففر عبد الوارث - أحد قواد إلياس - مستنجدا بقبيلة ورفجومة، فلقي الترحيب لدى عاصم بن جميل، ويزيد بن سكوم أمير ولهامة، وانضمت إلى هذا الحلف قبيلة نفزاوة، وزحفوا إلى القيروان، فدخلوها بالقوة سنة 135هـ (752م)، فلم يستطع حبيب بن عبد الرحمن المقاومة، ففر إلى قابس، ولكن فراره لم ينج من قبضة الورفجوميين، حيث لاحقه عاصم وتمكن من قتله، ولما عاد عاصم إلى القيروان ولى عبد الملك بن أبي الجعد عليها²⁰³.

وتجدد الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون يذكر أن عبد الملك بن أبي الجعد، ويزيد بن سكوم كانا على مذهب الإباضية²⁰⁴، ونحن نستبعد ذلك لأنه من خلال اطلاعنا على ثورات الإباضية لم نجد تجاوزا في الحرب، بل إنهم لا يحاربون إلا إذا استحل عدوهم دماءهم، ثم إن الإباضية حاربوا هذين القائدين وأخرجوهما من القيروان، أما ما ارتكبته ورفجومة، ممثلة في قائدها عبد الملك بن أبي الجعد من ربطهم للدواب في المسجد، وانتهاك الحرمات، فهذا لا يمت بصلة إلى الإباضية، كما أن معظم المصادر تتفق على أن هذه القبيلة كانت صفرية المذهب، وهو المذهب الذي عرف بالغلو، وحب الحرب أكثر من السلم، فهم الذين فجروا أول ثورة في المغرب الأقصى بقيادة ميسرة المطغري.

وورفجومة هذه هي أوسم بطون نفزاوة الزناتية، استبدت بشؤون إفريقية، وكانت شرّاً

201 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص24: الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص174.

202 - الشماخي: السير، ص143: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص41: محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص64.

203 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص224-225.

204 - المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص231.

4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (140/144هـ)

(761/757م):

أ - تولية أبي الخطاب الإمامة:

عندما عاد حملة العلم المغاربة، واستقروا في مدينة طرابلس، ساهموا بدوره في تنشيط حركة الدعوة، وعملا بنصيحة شيخهم في البصرة تشاوروا سرا حول عقد الإمامة، فلقبت هذه الفكرة إقبالا وتشجيعا، حينئذ أخبروا أبا الخطاب أن يذهب معهم إلى موضع يسمى «صياد» (قرب طرابلس) لإقامة الصلح بين متخاصمين على قطعة أرض، (وقيل عقد صلح بين رجل وزوجته)، وكان أبو الخطاب يجهل أن أصحابه يريدون مبايعته، فتم الاجتماع في الموقع المتفق عليه وعرضوا عليه الإمامة، وتذكر المصادر أنه امتنع، لكنهم ذكروه بوصية شيخهم أبي عبيدة فوافق على الدخول في الولاية¹⁹⁹.

وتجدد الإشارة إلى أن الإمامة عرضت في البداية على عبد الرحمن بن رستم، إلا أنه اعتذر فقبلوا عذره لأنه كان - حسب المصادر الإباضية - مشغولا بتأدية أمانة للناس، وقد اتفق في أثناء مبايعة أبي الخطاب بأن يأتي كل واحد بأتباعه، ورجال عشيرته مسلحين، وأخبروهم سرا بأن أبا الخطاب هو الإمام، فلما كان اليوم المحدد جاء شيوخ نفوسة، وهوارة، وهويشة، وزناتة، وغيرهم وقالوا لأبي الخطاب: «أبسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله، وسنة نبيه (ص)، وأثار الصالحين». ولما رأى أبو الخطاب إصرارهم على ذلك اشترط عليهم أن لا يذكروا في عسكره مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا من استمرار الخلاف بين الجماعات الإباضية²⁰⁰.

ب - استيلاؤه على طرابلس:

لما أنشأ الإباضية إمامتهم، وأعلنوا الظهور، واستولوا على مدينة طرابلس، وطردها منها عامل أبي جعفر المنصور، عمرو بن سويد المرادي، وقد اتبع الإباضية خطة ذكية في فتحها، حيث عمدوا إلى رجال بأسلحتهم فحملوها في الجواليق على الجمال وكأنها عيرا أقبلت إلى المدينة، فلما توسطوا المدينة، ولم يفتن أحد بما صنعوا، فتحوا الجواليق فخرج الرجال والسلاح في أيديهم فقصدوا عامل أبي جعفر ليقتلوه، لولا أن نهاهم

199 - الشماخي: السير، ص124-125: السيابي: طلقات المعهد الرياضي، ص53: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص49: بحاز: الدولة الرستمية، ص65.

200 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص62-63: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص22-23.

خالصا على أهلها. فقد أئختنت القتل في العرب من قريش. واستباححت كل محرم. مما أدى إلى استيلاء جيرانهم بربر نفوسة. وهوارة. وبعض زناتة²⁰⁵. ويصف ابن عذاري أعمال هذه القبيلة بقوله: «تغلب على إفريقية بعض القبائل الصفرية بعد مقتل حبيب وعاصم. فدخلوا القيروان. وربطوا دوابهم. وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب. وندم الذين استدعوههم أشد ندامة»²⁰⁶.

ومن أسباب دخول الإباضية القيروان. تذكر المصادر أن امرأة من القيروان هي التي أرسلت كتابا إلى أبي الخطاب تبلغه أن لها ابنة جعلتها في مطمورة. خوفا عليها من ورفجومة. وبعضها تقول أن رجلا من الإباضية دخل القيروان فرأى بعض رجال ورفجومة قد كابروا امرأة على نفسها والناس ينظرون. ولم ينكر ذلك عليهم. وقال البعض بأن جماعة من رجال هذه القبيلة أخرجوا امرأة وهي تصيح: يا معشر المسلمين أغيثوني. فلم يغتها أحد فمد الله في صوتها فسمعها أبو الخطاب. فاستغل هذه الفرصة وزحف برجاله لتطهيرها من الصفرية. وفي طريقه استولى على مدينة قابس (140هـ) (757م). بعد حصار لم يدم طويلا. وترك عليهم عاملا. كما استولى على جزيرة جربة. وجبل دمر في السنة نفسها²⁰⁷.

وهنا نلاحظ أن المصادر الإباضية تريد أن تعطينا مبررا لهذا الحملة. وأن القصد منها هو النهي عن المنكر. والحقيقة أن الإباضية عندما شعروا أنهم أقوياء أرادوا توسيع الرقعة الجغرافية للإمامة. وما فتح قابس وجبل دمر إلا دليل على ذلك. وهناك سبب آخر له أهميته هو الآخر وهو الصراع التقليدي بين فرق الخوارج. هذا الصراع الذي انتقل من المشرق إلى المغرب. فهذه الظروف كانت مهية للإباضية للقضاء على منافسيهم. وفي الوقت نفسه الاستيلاء على القيروان مركز الإمارة. والانتقام من الدولة الأموية وعمالها في العدة المغربية.

ولما استولى أبو الخطاب على قابس وما جاورها. انتقل إلى القيروان. فلما علم عبد الملك بوصول الحملة أرسل إليه جيشا لكنه هزم وتمكن كذلك من قتل عبد الملك (صفر 141هـ) (758م). وعند وصوله القيروان خرجت إليه ورفجومة وقاتلته قتالا شديدا. فانهزم أهل القيروان شر هزيمة وتمكنوا من السيطرة على المدينة. حينئذ عين أبو الخطاب زميله في الدراسة عبد الرحمن بن رستم واليا عليها ثم غادرها²⁰⁸.

205 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص 231-232؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 184.

206 - ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 70.

207 - الشماخي: السير، ص 127.

208 - ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 112؛ ابن الأثير: الكامل، ج 2، ص 127.

والملاحظ دائما أن المصادر الإباضية تبرر أعمال أهل المذهب بأنهم لا يحاربون إلا إذا استحل عدوهم دماءهم. ففي حصار القيروان مثلا يذكر أبو زكريا والدرجيني أنه حدث وأن مرض عاصم السدراتي فاشتتهى قثاة. فبعث أهل القيروان رجلا يبيع القثاة فسموا له واحدة وأمروا البائع بأن يعطيها لعاصم فأكلها فمات. ثم صاح أهل القيروان يخبرونهم بما فعلوه. ولما وصل خبر الجريمة إلى أبي الخطاب أمر أصحابه بالانسحاب ليلا وكأنهم انهزموا. فلاحقوهم إلى أن وجدوهم مختبئين قرب مدينة «رقادة» فهجم عليهم الإباضية وظلوا يلاحقونهم ويقتلونهم إلى أن دخلوا المدينة معهم. وذلك سنة 141هـ (758م)²⁰⁹.

كما تظهر المصادر الإباضية رغبة إخوانهم في الإصلاح. وأن ثوراتهم هي وسيلة للإصلاح وليس للتخريب والاستيلاء على السلطة. فمثلا عند دخولهم القيروان تذكر أن أبا الخطاب منع أصحابه من إفساد الزرع. فلما رأى الناس سلامة زرعهم. تعجبوا من عدله. وسيرته. وطاعة أصحابه له فيما يأمرهم به من الحقوق²¹⁰.

وإذا كانت هذه المصادر تؤكد على أن خروج الإباضية إلى القيروان كان تلبية لدعوة تلك المرأة التي استنجدت بهم. والعمل على القضاء على المناكر التي ارتكبتها ورفجومة. فإننا لا نستبعد العامل الاقتصادي. ففي هذه السنة شهدت منطقة طرابلس قحطا شديدا أرغم سكانها على أكل الجراد²¹¹.

وتذكر المصادر الإباضية كذلك أن مدينة «رقادة» سميت بهذا الاسم لأنها كانت موقع معركة كان فيها القتلى مزملين في ثيابهم كأنهم رقود²¹². والحقيقة أن تسمية المدينة بهذا الاسم كان متأخرا عن هذه الفترة. فمدينة رقادة بناها إبراهيم الأصغر الأمير الثامن في دولة الأغالبة سنة 263هـ (876م) وانتقل إليها من العباسية مع أهله ورجال دولته. وبنى بها القصور ونصب في إحدى عماراتها بيت الحكمة التي جلب إليها علماء في الطب والحكمة وغيرها من العلوم من بغداد ومصر²¹³.

ونلاحظ كذلك أن الإباضية يحاولون دائما تطبيق مبادئهم في أثناء غزواتهم. وفي الميدان. فالمعروف عنهم أنهم إذا غنموا لا يأخذون سوى السلاح. والكراع. وما عدا ذلك

209 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 40؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 26.

210 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص 40.

211 - الشماخي: السير، ص 127.

212 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 129.

213 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 117؛ البكري: المغرب، ص 27؛ رابع بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981، ص 31.

فإنه لا يستحلونه لأنفسهم. ففي القيروان تفقد أبو الخطاب القتلى فوجد قتيلا مسلوبا وعندما عثر على السلب عند رجل من سدراتة أقام عليه الحد. فراح السدراتي غاضبا إلى بغداد وترجى الخليفة المنصور كي يبعث معه جيشا إلى بلاد المغرب. وأنفذ هذا الأخير جيشا يقوده محمد بن الأشعث الخزاعي²¹⁴.

5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية:

ظلت الخلافة الأموية والعباسية خراب الإباضية في كل مكان. فلما قضى الأمويون على إمامتهم في حضرموت. وقضى بنو العباس على دولتهم في عمان في فترة متأخرة. أوعزوا إلى الولاة في المغرب مهمة محاربتهم والقضاء عليهم بسرعة قبل أن يشتد ساعدتهم. خاصة وأنهم استولوا على القيروان مركز الإمارة. كما وضع الخلفاء الجيوش تحت تصرف الولاة. فعندما بلغ الخبر إلى المنصور سواء عن طريق الرجل السدراتي. أو عن طريق العرب الذين فروا من القيروان قاصدين بغداد ليشتكوا ما حل بهم من الصفرية. أرسل محمد بن الأشعث إلى مصر مكلفا إياه بالقضاء على الفتنة في إفريقية. قام ابن الأشعث في البداية بإرسال قوة من مصر يقودها أبو الأحوص العجلي سنة 142هـ (759م). فهزمه الإباضية بسرت. وعاد من حيث أتى²¹⁵. حينئذ طلب المنصور من ابن الأشعث الخروج إليهم بنفسه. فقدم إفريقية على رأس أربعين ألف. وبث عيونه في المنطقة ليزوده بأخباره. فعادت عيونه تقول له: «رأينا رهبانا بالليل. أسرابا بالنهار. ويتمنون لقاءك كما يتمنى المريض لقاء الطبيب. لو زنى صاحبهم لرجموه. ولو سرق لقطعوه. وخيلهم من نتاجهم. ليست لهم بيت مال يرزقون منه. وإنما معاشهم من كسب أيديهم»²¹⁶.

أثر هذا الخبر على معنويات ابن الأشعث. وما أن علم بحدوث خلاف وانقسام في صفوف أبي الخطاب عندما تنازعت هواره. وزناته. فيما بينها حيث اتهمت زناته أبا الخطاب بميله إلى هواره. سر بذلك ولجأ إلى الخيلة بإبلاغ عمر بن مكتن - عامله في سرت - بأنه لا يحاربه إلا في النهار. ثم أظهر العودة وكأن أبا جعفر استدعاه. فأدى ذلك إلى انصراف أصحاب أبي الخطاب بالرغم من تحذيره لهم قائلا: «إن العرب أصحاب مكر وخداع فلا تفترقوا على ملككم حتى تتيقنوا بروجوع القوم»²¹⁷. لكن دون جدوى ولما علم

214 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص41.

215 - المسعودي: الخلاصة النقية. ص18: إحسان عباس: تاريخ ليبيا. ص47.

216 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص44: الشماخي: السير. ص131.

217 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص45.

ابن الأشعث بذلك كر على طرابلس ونفوسة. واستنفر أبو الخطاب أصحابه. والتقى الجيشان بموضع قرب طرابلس يعرف باسم «تاورغا». وانتهت المعركة بمقتل أبي الخطاب وانهزام أصحابه سنة 144هـ (761م). أما الذين لجؤا من القتل فقد فروا لائذين بالجبال والمرتفعات في طرابلس. ومنهم من فر إلى المغرب الأوسط. وعلى الرغم من هذه الهزيمة التي منوا بها. إلا أنهم التفوا مرة أخرى حول أبي هريرة الزناتي في السنة نفسها وأعادوا الكرة لكنهم هزموا²¹⁸.

ولما علم عبد الرحمن بن رستم ما حدث غادر القيروان متجها إلى إباضة المغرب الأوسط صحبة ستين شيخا من مشائخ الإباضية. فنزل على قبيلة لماية. لحلف كان بينه وبينهم. فقصده ابن الأشعث وحاصره في جبل منيع يقال له «سوفجج» وظال الحصار حتى تفشى المرض في صفوف ابن الأشعث فاضطر إلى العودة إلى القيروان²¹⁹.

وفي طريقه تتبع أثر الإباضية في كل من «ودان وزويلة» فقتل عبد الله بن حيان زعيم زويلة سنة 144هـ (761م). ولما دخل إلى القيروان قام بتعيين مجموعة من العمال. حيث أمر على أهلها عمرو بن عثمان القرشي. وولى على طرابلس الحارق بن غفار الطائي. وعلى طبنة والزاب الأغلب بن سالم²²⁰.

ومهما يكن من أمر فإن معركة تاورغا كان لها تأثير كبير على نفوس إباضية طرابلس ونفوسة. فهي التي أنهت أكبر دولة أسسوها في إفريقية حتى هذا التاريخ. ولكن نفوسهم لم تهدأ فسرعان ما فجرت زناته ثورة أخرى قادها أبو هريرة الزناتي آلت في النهاية إلى الفشل. حيث تمكن ابن الأشعث من القضاء عليها في ربيع الأول سنة 144هـ (761م). كما تعرض إباضية طرابلس والجبل إلى بطش شديد من قبل الحارق بن غفار. الذي أسرف في تقتيلهم وسبي ذريتهم فأرغموا إلى الجنوح إلى السلم. ودانوا لابن الأشعث بالطاعة مكرهين.

وما أن استقرت الأوضاع في إفريقية. وعاد الهدوء حتى اضطرت الأمور في المغرب الأقصى. فظل الإباضية يتبعون عن كثب ما ستسفر عليه ثورة أبا قررة المغيلي الصفري. لعلهم يستفيدون من ثورته في تمثيل دور الحكم العدل. لكن انهزام هذا الأخير حال

218 - السلاوي: الاستقصاء. ج1. ص57: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص42: إحسان عباس: تاريخ ليبيا. ص47-48.

219 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص47.

220 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص72-73: ابن خلدون. العبر. مج4. ص411.

دون ذلك، مما أدى إلى تنظيم صفوفهم من جديد. وبايعوا يعقوب بن لبيب مولى كندة المعروف بأبي حاتم الملزوزي، إماما خلفا لأبي الخطاب سنة 151هـ (768م). وبنوا خطتهم هذه المرة على التنسيق بين بقية الطوائف البربرية للظفر بالحكم²²¹.

6 - إمامة أبي حاتم الملزوزي:

لما قتل أبا الخطاب بايع الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة وغيرهما أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مريم بن يطوفت، ويسمى كذلك أبا قادم، وتختلف المصادر في قبيلته، فابن خلدون يذكر أنه من أمراء مغيلة²²². في حين يرى البرادي بأنه من هوارة²²³. وقيل إنه من سدراتة. ونشاطه محمود إسماعيل الرأي حين رجح انتماءه إلى قبيلة هوارة. لأن هذه الأخيرة كانت من أهم القبائل التي أخذت بالمذهب الإباضي، وشاركت في أغلب الثورات الإباضية. أما قبيلة مغيلة فقد كانت على المذهب الصفري، وأما سدراتة فلم يكن لها دور فعال في هذه الفترة²²⁴.

وعن تولية أبي حاتم الإمامة تردد المصادر الرواية نفسها التي قيلت حول مبايعة أبي الخطاب. فقد أظهر الإباضية لأبي حاتم أن امرأة أساء إليها زوجها فطلبوا منه الخروج معهم لإقامة الصلح بينهما، وهم في الوقت نفسه يريدون الخروج على جند طرابلس لما آنسوا من أنفسهم قوة. فلما سمع عامل طرابلس «الجنيد بن بشار الأزدي» أرسل إليهم قوة بلغت خمسمائة فارس إلا أنها هزمت، وتتبع أبو حاتم فلول الجيش إلى أن دخل طرابلس واستولى عليها، كما قضى على الحملة التي قادها الجنيد نفسه، والتي تكونت من أربعمائة فارس، أتته كإمداد من عمرو ابن حفص بقيادة خالد بن المهلب، انهزم الإثنان ولجأ إلى مدينة قابس²²⁵.

أ - استيلاؤه على طرابلس:

ظل أبو حاتم مقيما في طرابلس إلى أن وصل عمرو بن حفص الملقب بهزار مرد (يعني ألف رجل)، إلى إفريقية سنة 151هـ (768م). حاول عمر استرداد المدينة بأن أرسل لهذا الغرض ثلاثة جيوش هزمها الإباضية كلها، كان أولها بقيادة الجنيد بن بشار الأزدي، والثاني بقيادة خالد بن يزيد المهلب²²⁶.

221 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص66: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص170-171.

222 - ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص226.

223 - البرادي: الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات (طبعة حجرية)، القاهرة، (د.ت)، ص173.

224 - ينظر: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص66.

225 - الشماخي: السير، ص134: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص335.

226 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص226: محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص68.

ولم يكتفوا بهذا الانتصار، بل طاردوا سليمان بن عبادة المهلب إلى القيروان، وفرضوا عليه الحصار سنة 153هـ (775م). وفي هذه الأثناء كان عمرو بن حفص غائبا عنها منشغلا ببناء مدينة طبنة، بأمر من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، حينئذ غادر أبو حاتم القيروان متجها إلى مدينة طبنة التي حاصرها هي الأخرى حصارا شديدا، واشترك في هذا الحصار الإباضية والصفريّة جنبا إلى جنب²²⁷.

ب - حصار طبنة والقيروان:

تذكر المصادر أن اثني عشرة جيشا أحاطوا بمدينة طبنة، منهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألف، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألف، وعاصم السدراتي في ستة آلاف، والمسعود الزناتي الإباضي في عشرة آلاف فارس، إلى جانب جيش أبي حاتم²²⁸. بالإضافة إلى جيش عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري الذي بلغ ألفين، وأتباع جرر بن مسعود من قبيلة مديونة²²⁹. ولما رأى عمرو بن حفص ما أحاط به من العساكر جمع قواده واستشارهم في الأمر، كان مصمما على لقائهم على الرغم من قلة عدده وعدته، فأشاروا عليه ألا يخرج من المدينة خوفا من مقتله فلجأ إلى الحيلة بإثارة الشقاق بين محاصريه، حيث صالح أبا قرّة ووعد به بأن يعمل على صرف أخيه وتفريق الصفري عنه لكنه أبى فأغرى أخاه بمبلغ مالي قدره أربعة آلاف درهم، وثيابا كثيرة، على أن يعمل على صرف أخيه، فأجابته وانسحب، واضطر أبو قرّة إلى اتباعهم، ويذكر ابن الأثير أن عمرو عرض على أبي قرّة مبلغا قدره ستين ألف درهم وقال: «بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة أبيع حريكم بعرض قليل من الدنيا»²³⁰.

وبعد أن تمكن عمرو من فك الحصار عاد إلى القيروان وشحنها بالقوات والرجال وعدة الحصار لاحقه أبو حاتم ثم ضرب عليه الحصار بجيش بلغ تعداده مائة وخمسين ألف مقاتل.

وتجدد الإشارة أن عمرا بعد أن استطاع تفريق الصفريّة عن الإباضية، أرسل جيشا تمكن من إلحاق الهزيمة بعبد الرحمن بن رستم، الذي فر لائذا بتاهرت، أما أبو قرّة فقد عاد إلى طبنة بعد خروج عمرو ومنها، لكن قوات هذا الأخير ألحقت به الهزيمة²³¹.

227 - المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما، المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

228 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص241.

229 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص226: الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص186.

230 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص241.

231 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص76: محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص69: موسى لقبال،

المغرب الإسلامي، ص172.

واشتد الحصار على سكان القيروان حتى أنهم أكلوا دوابهم وكلابهم. وكان يخرج إليهم في كل يوم يحاربهم. ثم أثر سياسة الدفاع بحفره خندقا على باب أبي الربيع. لكن هذه السياسة عادت عليه بالعواقب الوخيمة. خاصة وأن العديد من جنده فر من المدينة والتحق بالإباضية. وقام أبو حاتم بتوزيع رجاله على سائر أبواب المدينة مانعا المحاصرين من الإفلات. وفضلوا كذلك حتى لم يبق لهم شيئا من الأقوات فاضطربت أمورهم. واختلف القواد على عمرو²³².

وعندما علم هذا الأخير بقدوم يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والذي أرسله الخليفة العباسي لنصرته على رأس ستين ألف جندي قال: «لا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار. إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب». فخرج عمرو واشتبك مع الإباضية في معركة قتل فيها. وفتحت أبواب المدينة لأبي حاتم في ذي الحجة سنة 154 هـ (770م) فما كان من حميد بن صخر الذي تزعم الجند بعد مقتل أخيه إلى عقد الصلح على شرط أنه وأصحابه لا يخلعون طاعة سلطانهم. ولا ينزعون سوادهم بما أغضب أبا حاتم. فأمر بإحراق أبواب المدينة وإخراج أهلها إلى منطقة الزاب²³³.

ولما بلغ الخبر أبا حاتم بوصول جيش يزيد من المشرق غادر القيروان لملاقاته. واستطاع أن يهزم طليعته التي قادها سالم بن سواده التميمي. ثم انتقل إلى طرابلس ليستنفر قبائل البربر الإباضية من نفوسة. وهوارة. وضريسة. وغيرهم. ومنها عرج إلى تونس للقضاء على ثورات جند العربي على عامله عبد العزيز بن السمح في الزاب. ذلك أنه لما غادر طرابلس أمر صاحبه بالقيروان أن يأخذ السلاح من الجند. وأن يفرق بينهم فخالف بعض أصحابه وقالوا: «لا نغدر بهم». وكان على رأس الخالفين عمرو بن عثمان الفهري. وقام بقتل أصحاب أبي حاتم فعاد إليه²³⁴.

ويبدو أن شقاقا آخر حدث في صفوف الإباضية حيث انحازت قبيلة مليلة الهوارية بزعمارة يوسف الفرطيطي إلى يزيد. وكذلك بعض رجال نفوسة أمثال عمرو بن مطكود. وساعده بكتشفهم له عورات البلاد²³⁵. والتقى الجيشان في منطقة جندوبة ووقعت معركة هائلة في ربيع الأول سنة 155 هـ كانت فيها نهاية أبي حاتم وتمزق جيشه. وشرع يزيد في تتبع فلول جيشه في طرابلس ونفوسة ومختلف المناطق الأهلة بالإباضية.

232 - ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما: محمود إسماعيل: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

233 - ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص76: السلاوي: الاستقصاء. ج1. ص58: ابن أبي الضياف: أخاف أهل

الزمان. ج1. ص94-95.

234 - ابن الأثير: الكامل. ج5. ص242.

235 - الشماخي: السير. ص136.

وكانت هذه الضربة قاضية على الإباضية. ففقدوا إمامهم المشهور. الذي قاد ثورتهم مدة خمس سنوات (-150 155 هـ) (767-772م). وانتهت أحلامهم في إقامة إمامة الظهور في طرابلس ونظرا لمكانة هذا الإمام نسجت حوله أحداث خرافية. فالشماخي يروي في سيره أن مكان المعركة يستضيء نورا كل ليلة²³⁶.

هذا وتجدر الإشارة أن نشاط الإباضية العسكري تواصل بعد موت أبي الخطاب. فقد قامت هوارة بثورة تزعمها أبو يحيى بن فوناس سنة 156 هـ (773م) في نواحي طرابلس. وتمكن عبد الله بن السمط الكندي من القضاء عليها بسهولة. لأنها كانت تفتقر إلى التنظيم. ويذكر ابن عذارى أن الإباضية لم تقم لهم قائمة طول حكم يزيد الذي امتد إلى غاية سنة 170 هـ (786م) بقوله: «تهدنت إفريقية ليزيد بن حاتم»²³⁷.



236 - المصدر نفسه. ص137.

237 - ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص79.

الباب الثاني

جبل نفوسة والحركة الإباضية

(160-296هـ) (776-909م)

الفصل الأول

الرواد النفوسيون في المجال السياسي والعسكري والعقائدي

1 - المجال السياسي.

2 - المجال العسكري.

أ - حصار طرابلس.

ب - نفوسة والصراع الطولوني الأغلبي.

ج - موقعة مانو.

3 - المجال الفكري والعقائدي.

أ - الخلفية.

ب - النفاثية.

1 - المجال السياسي:

تضاربت الآراء وتباينت حول حدود الدولة الرستمية وتبعية الجبل للإمامة في تاهرت. فهناك من يرى أنها لم تتعد مدينة تاهرت، وبالتالي فهي دولة مدينة، وهناك من قال إن هذه الدولة تضم إليها بعض المناطق القريبة من العاصمة، ويستبعد البعض الآخر أن يكون جبل نفوسة خاضعا لسلطة الرستميين، وإنما كان تابعا لها روحيا فقط. مثل بقية القبائل الإباضية المنتشرة من تلمسان غربا إلى برقة شرقا.

ومن خلال المصادر المتوفرة نستنتج أن هذه الآراء غير صحيحة، فالمتبع لتاريخ الجبل يلاحظ بأن «أهل الدعوة» كانوا في أغلب الأحيان يطلبون من المركزية في تاهرت أن تعين عليهم عاملا أو واليا أو أميرا، بل حتى المناطق الأخرى مثل قابس، وقنطرة، وقسطيلية، ونفزاوة كان عمالها يعينون من قبل الإمام الرستمي، ويبدو أن نواحي الجبل كانت تابعة لعامله، والدليل على ذلك ما سنراه في حديثنا عن التجاء حفيد خلف إلى قبيلة زواغة بجرية، إذ من الحلول التي اقترحها الوسيط أبو سلامة اليهراسني للزواغيين أن يسلموا حفيد خلف لأبي منصور إلياس، ويكاتبوا الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) يطلبون منه أن يولي عليهم واليا منهم، وبذلك يستقلون عن حكم نفوسة²³⁸.

والجدير بالذكر أن الإمامة الرستمية قد أعطت في بعض المرات الحرية لسكان الجبل في اختيار من يولونه، ويرتضونه، وفي بعض الأحيان لا تعطى لهم مثل رفضها لتولية خلف بن السمح.

ومن خلال تصفحنا للمصادر ارتأينا أن نذكر النصوص الآتية كقرائن على أن الجبل كان تابعا للإمامة الرستمية، على الرغم مما ظهر من بعض النزاعات الاستقلالية التي شكلت في وقت معين خطرا على الوحدة الترابية.

- 1 - «وأنته (أي أفلح بن عبد الوهاب) نفوسة الجبل يسألونه أن يقدم عليهم من رآه»²³⁹.
- 2 - «لما استقام له ملكه (أي أبو اليقظان) أتته وفود من نفوسة من الجبل، المعروف بجبل نفوسة ليقدّم عليهم أميرا من أنفسهم»²⁴⁰.
- 3 - «طلبه (أي السمح بن أبي الخطاب) أهل طرابلس إلى الإمام أن يوليه عليهم، وكان به

238 - ينظر: ص100.

239 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص57: البرادي: الجواهر المنتقاة، ص174.

240 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص98.

ظنينا فآثرهم على نفسه وقدمه عليهم»²⁴¹.

4 - «لما توفي السمح ولوا على أمورهم خلف بن السمح. فجاء الرد من الإمام عبد الوهاب «من ولي خلفا من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين. ومن أبى توليته فقد أصاب»²⁴².

5 - «فلما وصل إليهم (أي الخلفية) جوابه أنكروا إمامة عبد الوهاب من غير حدث وزعموا أن إمامهم خلف. واعتلوا أن حوزة طرابلس منقطعة عن حوزة تاهرت وبعيدة منها. فلما أبوا من قبول الحق استعمل الإمام أبي الحسن أيوب بن العباس»²⁴³.

6 - «ولما حضرته الوفاة (أي أبو الحسن أيوب بن العباس) أرسلوا إلى الإمام أن يولي عليهم. فأجابهم: أن يختاروا أفضلهم... وكتبوا إليه أنه ليس مثل أبي عبيدة لهذا الأمر. عبد الحميد الجناوني فأرسل الإمام إليهم أن يولوه بأمره»²⁴⁴.

7 - «ذكر غير واحد من أصحابنا أن الإمام رضي الله عنه استعمل على قنطرة أبا يونس وسيم النفوسي. وأصله من جبل نفوسة»²⁴⁵.

8 - «ومنها وكيل بن دراج عامل الإمام عبد الوهاب على قفصة»²⁴⁶.

9 - «ومنها سلام بن عمرو اللواتي عامل الإمام عبد الوهاب على سرت ونواحيها»²⁴⁷.

10 - «ومنها مبال بن يوسف عامل الإمام أفلح على نفاوة»²⁴⁸.

11 - «ومنها سلمة بن قفطة عامل الإمام عبد الوهاب على قابس ونواحيها»²⁴⁹.

12 - «ومنها جارون بن القمري عامل الإمام عبد الوهاب وصهره وهو زناتي»²⁵⁰.

13 - «ومنها نهدى بن عاصم الزناتي عامل الإمام عبد الوهاب»²⁵¹.

241- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص119: الشماخي: السير. ص163-164.

242 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص121.

243 - الشماخي: المصدر السابق. ص181.

244 - نفسه. ص182.

245 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص136.

246 - الشماخي: المصدر السابق. ص203.

247 - نفسه. ص203.

248 - الشماخي: ص203.

249 - نفسه. ص203.

250 - نفسه. ص203.

251 - نفسه. ص203.

14 - «ومنها ييران من بني يزمتن المزاتي عامل الإمام عبد الوهاب»²⁵².

15 - «اختار الإمام أفلح (بن عبد الوهاب) سعد (بن أبي يونس وسيم) لإحكام الناس في موضع أبيه (قنطرة)»²⁵³.

16 - «ومنها أبو ذرaban بن وسيم الويغوي... كان عاملا على جبل نفوسة»²⁵⁴.

17 - «ومنها ابو منصور النفوسي عامله (أي عامل أبي اليقظان) على نفوسة وطرابلس»²⁵⁵.

18-«ومنها أبو يحيى زكريا الأرجاني... قدمته نفوسة حاكما أو إماما مدافعا»²⁵⁶.

19-«ومنها أبو محمد الدرقي... كان حاكما على أهل جادو»²⁵⁷.

20 - «وأن نصر بن أكبت مقدم فساطو»²⁵⁸.

21 - «وكان أبو يحيى يوسف متفننا في العلوم وعارفا بالنجوم. وتولى بعد أبيه (أبو محمد الدرقي) حكومة جادو»²⁵⁹.

22 - «وأما أبو داود سليمان وأبو عبد الله محمد بن أبي يحيى فكانا حاكمين في أهل زمور»²⁶⁰.

23 - «ومنها أبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس التندميرتي عزله أهل نفوسة من غير حدث. فولوا مكانه أبا زكريا الأرجاني»²⁶¹.

24 - «ومنها أبو عبد الله (الويغوي) الكبير حاكم على أهل ويغو»²⁶².

من خلال هذه النصوص يتضح لنا أن جبل نفوسة كان تابعا للدولة الرستمية. مع التأكيد في الوقت نفسه على أن النفوسيين حاولوا عدة مرات الاستقلال مع

252 - نفسه. ص203-204.

253 - نفسه. ص214.

254 - نفسه. ص215.

255 - نفسه. ص224.

256 - نفسه. ص243.

257 - نفسه. ص285.

258 - نفسه. ص285.

259 - الشماخي: المصدر نفسه. ص287.

260 - نفسه. ص288.

261 - نفسه. ص318.

262- نفسه. ص326.

للسهر على مصالحهم والحفاظ على تطبيق المذهب. وما العمال الذين ذكرهم الشماخي إلا عمال جبابة. لأن الإباضية كانوا ينتمون روحياً إلى الإمامة في تاهرت. وسياسياً إلى الأغلبية. وبالتالي كانوا يدفعون الضريبة مضاعفة²⁶⁸.

وإذا كان هذا الرأي صحيحاً من جانب، فمن جانب آخر نجد أن هذا العامل كان يعين العمال على قرى الجبل. ويعين القضاة. ويسير الجيوش. ويعلم الناس أمور دينهم وديانهم. ويأمر بالمعروف. وينهى عن المنكر. وهذه الأعمال كلها ليست من صلاحيات جابي الأموال. وإذا كنا لا نعثر على لفظ (عامل) في المصادر بعد سقوط الإمامة الرستمية. فلأن إمامة الظهور انتهت وحلت محلها إمامة الكتمان. وتشتت الجماعات الإباضية وراحت كل جماعة تسير شؤونها بما يناسبها. فسكان الجبل مثلاً ظلوا يعينون «حكاماً» يشرفون على شؤونهم. مما يمكن لنا أن نقول بأن النفوسيين أحيوا الدولة الإباضية بعد اندثارها. ولما تأسس نظام العزابة أصبح مجلس العزابة يقوم مقام العامل. ضف إلى ذلك إذا سألنا قول محمد الطالبي فلماذا لم تعين الدولة الرستمية عمالاً لجباية الصدقات على وارجلان التي كانت شريانا حيويًا لتجارة السودان. تدخلها الأموال الكثيرة؟ بل لماذا لم يعينوا الولاة أصلاً على هذه المدينة؟ أي يعني هذا أن المدينة كانت مستقلة عن تاهرت. وكانت تابعة لها روحياً لها فقط؟

وكان الأجدد بالأئمة الرستميين الاهتمام أكثر بهذه الجهة التي تدر على بيت مالهم بالذهب المتدفق من السودان. اللهم إلا إذا كانوا ينظرون إلى هذه الجهة على أنها مضمونة ولا تحتاج إلى حماية لأن حدودها لا تتاخم دولة عدوة أو قبائل تعتمد في حياتها على السلب. والنهب. والغارات. وحتى جبل نفوسة على الرغم من أهميته السياسية والثقافية والعسكرية لأنه يقع في أحد الجبهات الحامية. إلا أنه لم يحظ هو الآخر باهتمام الأئمة إلا في حدود المصالح. فكلما احتاج الأئمة لنفوسة بعثوا يطلبون نجدتها. مثلما حدث إبان حرب الواصلية. وفي المقابل ظل النفوسيون يواجهون أعداءهم لوحدهم دون أن تقدم إليهم الإمامة السند القوي كالذي حصل في «مانو». وفي غزوة ابن طولون. واكتفت الإمامة بتعيين العمال. والحرص على تبعيته للإمامة. بالوقوف ضد أي محاولة للانفصال. ويكفي أن نقول إن هذا الجبل الذي كان لأهله الفضل في قوة هذه الدولة. قد حظي بزيارة واحدة من قبل الأئمة تتمثل في زيارة الإمام عبد الوهاب واستقراره فيه سبع سنوات. وحتى هذه الزيارة تحتاج إلى وقفة لمناقشتها.

268 - محمد الطالبي: الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي 184-296هـ). ترجمة: المنجي الصيادي. دار الغرب الإسلامي. ط1. بيروت. 1985. ص389-391.

الحفاظ على الرابطة الروحية. وهي المسألة التي سنتعرض إليها لاحقاً. ونلاحظ كذلك أن نفوسة كانت تقوم بتعيين العمال على بعض القرى دون العودة إلى الإمامة. بل حتى أخذ رأيها. وهذا ما يدل على أن ولاة الجبل كانت لهم حرية التصرف على المستوى الداخلي. كما نلاحظ أن نفوسة اشترطت على الإمامة أن يكون العامل منها دون اقتراح شخصية معينة²⁶³ وفي حالة أخرى اقترحت اسماً معيناً²⁶⁴ وفي حالة ثالثة قام النفوسيون بتولية رجل على أمورهم دون استشارة الإمامة أو تزكيتة وترشيحه في انتظار موافقة الإمام²⁶⁵.

وإذا كان في بعض الأحيان يتولى شيوخ الجبل تولية عامل عليهم فربما يعود ذلك إلى ظروف الإمامة التي لا تهتم لما يحدث في الجبل خاصة في الفترة التي سادت فيها القلاقل والفتن فمن خلال النصوص السابقة نلاحظ أن نفوسة عينت أو عزلت مرتين فقط²⁶⁶.

وعلى الرغم من ورود كلمة (عامل). و(إمام). و(حاكم). و(أمير). في المصادر إلا أن هناك من الباحثين من راح يناقش كلمة (عامل) للوصول إلى نتيجة وهي أن مهمة العامل تكمن في جمع الصدقات. وجباية الأموال فقط. وإرسالها إلى الدولة. ومن هؤلاء «محمد الطالبي» الذي يذكر بأن الشماخي أورد ما يوحي بذلك. وإذا عدنا إلى سيره نجد يقول: «ومنهم يبيب بن زلفين... كان له... ثلاثون ألف ناقة. وثلاثمائة شاة. وإثنى عشر ألف حمار. وإذا جاء العامل وقت الصدقة قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل فغيبوها فإمّر العامل بأخذها»²⁶⁷.

ونعتقد أن هذا النص لا يحيط بمفهوم (العامل) فقد يكون لكل وال على الجبل عاملاً يساعده في جباية الأموال. وفرضاً أننا أخذنا برأي محمد الطالبي فيماذا نفسر المصطلحات الأخرى التي وردت في كتاب السير (حاكم) (إمام) وفي كتاب «أخبار الأئمة الرستميين» (أمير).

والحجة الأخرى التي يركز عليها محمد الطالبي هي أن هناك العديد من الإباضية الذين كانوا يعيشون في أماكن لا تخضع للسلطة الرستمية. وبالتالي فإن مسألة الجباية تطرح دون شك وفي هذه الحالة كلف عامل رضي به الإمام. وكأنه رئيس للإباضية

263 - ينظر: النص رقم 2.

264 - ينظر: النص رقم 3-6.

265 - ينظر: النص رقم 4.

266 - ينظر: النص رقم 18-23.

267 - ينظر: النص رقم 204.

شد الرحال رفقة زوجته متجها إلى مكة للحج. وفي طريقه نزل بجبل «دمر»²⁷² وأخذ البيعة منهم. ثم ولى عليهم رجلا يسمى (مدرار المنتصر)²⁷³ زوج (أروة) أخته. وقيل اسمه (فزار).²⁷⁴ ومن دمر واصل مسيره فنزل بلدة «ويغو»²⁷⁵ ثم توجه الإمام إلى «تالت»²⁷⁶ والتي طالت فيها إقامته. حتى إنه بني له مصلى. ومنها انتقل إلى «ميري». قرب حصن «بني زمور»²⁷⁷ وبني له مسجد آخر في بلدة تيطاوين غير مسقف. مشهور بمسجد عبد الوهاب. وقد اجتمع فيه الشماخي مع بعض الخالفين²⁷⁸.

ويبدو أن الإمام استغل هذه الفرصة للاطمئنان على الرعية وتفقد أحوالها. فكان ينتقل من قرية إلى قرية. وفي كل واحدة يمكث أياما. يجتمع مع وجوهها فيقدم لهم النصيح ويعلمهم أمور دينهم.

وفي مدينة «ميري» اجتمع به «أهل الدعوة» من الجبل ولما علموا مقصده منعه خشية أن يقع في قبضة العباسيين. «فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله وأحكامه»²⁷⁹. وأصبحت الحاجة ملحة - كالعادة - إلى أخذ ورأي رؤوس المذهب في المشرق. فكتبوا إليهم مع رجل من «تمزدا»²⁸⁰ يستفتونهم في هذه النازلة. وكان رأس الجماعة هناك وقتئذ أبو الربيع بن حبيب. وابن عباد المصري. فلما بلغهما الكتاب. أجابه الربيع بأن يبعث بحجه

وسدراتة: ينظر: ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. ص 47-56؛ الحريري: الدولة الرستمية. ص 113-127. 272 - هو جبل يبعد عن جبل نفوسة بثلاث مراحل. تسكن أطرافه أقوام من البربر يسمون (رهانة) كانوا في زمن الإدريسي يعيشون على الغارة والسلب ينظر: القارة الإفريقية. ص 200.

273 - هو الذي ولي سجلماسة في النصف الثاني من القرن 2 هجري (8م) بعد وفاة أبيه القاسم سمعون بن واسول الكناسي الملقب بمدرار (155-167هـ) وأنجب من (أروة) ولده ميمون. توفي سنة 253هـ. ينظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص 502.

274 - الدرجيني: الطبقات. ج 1. ص 65-66.

275 - هي قرية تقع في الجزء الغربي من الجبل جنوب شرق مدينة شروس اشتهرت بالعلم. فهي إحدى الحواضر العلمية التي لا تحتاج فيها بيت إلى بيت أخرى في مسألة علمية. فإليها ينسب العلامة مهدي النفوسي الويغوي وفرج النفوسي. ينظر: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص 186-187.

T. Lewicki: Tasmiya Suyukh Nafusa, p98.

276 - تقع «تالت» على الضفة الغربية لوادي الشيخ وهي ليست بعيدة عن «القلعة وتومات» وهي قرى تطل كلها على الوادي. اشتهرت «تالت» بعلمائها منهم أبي سليمان داود بن إبراهيم. ينظر: معمر: المرجع نفسه. ص 177.

277 - ميري: قرية صغيرة تقع في أرض بني زمور غرب وادي الآخرة وهو ما يطلق اليوم على هذه الجهة اسم «الرجبان». ينظر: معمر: المرجع نفسه. ص 207؛ الباروني: الأزهار. ص 192.

278 - السير: ص 158-159.

279 - الدرجيني: الطبقات. ج 1. ص 65-66.

280 - تسمى كذلك توكيت هي إحدى القرى الكبيرة في ناحية جبل فساطو. ينظر: الباروني: الأزهار. ص 194؛ معمر: الإباضية في ليبيا. ص 199.

أما عن التبعية الروحية والتي أراد بعض المؤرخين التركيز عليها. منهم الشيخ بكري الذي يستبعد تبعية الجبل للإمامة سياسيا. ويرى بأن سلطتها لا تعدى تاهرت وأرباضها²⁶⁹. فإننا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي جزئيا فقط ذلك أن التبعية الروحية. وحتى الجبائية يمكن أن نحدد بدايتها بموقعة «مانو» سنة 283هـ (896م). لأنه من خلال النصوص السابقة نجد أن كلا من الأئمة: عبد الوهاب. وأفلح. وأبو اليقظان قد عينوا ولاة على الجبل. وهذا يعني أنه كان تابعا للإمامة طيلة الفترة الممتدة من سنة 160هـ (776م) - وهو تاريخ تأسيس الدولة - إلى غاية 281هـ (894م). وهي السنة التي توفي فيها أبو اليقظان. وتولى أبو حاتم يوسف الإمامة (281-294هـ) (894-906م). وما يدعم كلامنا ما ذكره اليعقوبي في وصف الجبل بقوله: «هم قوم عجم الألسن. إباضية كلهم لهم رئيس يقال له إلياس (أبو منصور إلياس) لا يخرجون عن أمره... لا يؤدون خراجا إلى سلطان. ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب»²⁷⁰.

ولما انهزمت نفوسة في «مانو» أصبح شيوخها يعينون الحكام دون الرجوع إلى تاهرت وأصبحت الصلة الوحيدة التي تربطهم بالدولة هي وحدة المذهب. وعلى الرغم من ذلك فإن النفوسيين عجزوا عن تقديم أية مساعدة لإمامتهم التي كانت تحتضر. فموقعة مانو كانت ضربة قاضية فيها حد سيفهم. وفي هذه الفترة (281-294هـ) (894-906م) يصح القول بأن الدولة الرستمية أضحت دولة مدينة لانقطاع الرابطة السياسية بينها وبين الأقاليم التي كانت تابعة لها في السابق.

2 - المجال العسكري:

أ - حصار طرابلس:

من الأحداث المهمة والخطيرة التي شهدتها جبل نفوسة في عهد عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم (171-211هـ) (787-826م). حصار مدينة طرابلس. ذلك أنه لما تمكن من الإمامة واستقرت له الأمور بعد أن قضى على الخلافات التي شهدتها فترة حكمه²⁷¹

269 - chikh bekri, le kharrejisme, p7780-269

270 - ينظر: صفة المغرب. ص 7.

271 - من الحركات المناوئة لإمامته حركة النكار التي تزعمها يزيد بن فندين فقد أنكر هذا الأخير إمامة عبد الوهاب بحجة أن عماله ليست لهم الكفاءة. وغير مؤهلين لإدارة شؤون الدولة. وأن بيعته باطلة لأنه لا يجوز تولية المفضل مع وجود الفاضل. ويجب أن تكون للإمام جماعة من أهل الحل والعقد لا يقطع أمرا دون استشارتها. وقد تحولت هذه المعارضة إلى معارضة مسلحة نتجت عنها محاولة لاغتيال الإمام وحدوث معارك قتل فيها عدد كبير من النكار. أما الخلافات الأخرى فقد أثارها كل من الواصلية وبعض القبائل كهوارة ومزاتة

ويرى الباروني ومحمود إسماعيل أن ثورة هوارة وتشبثها بمخالفة الأغلبية مرده إلى رغبته في الانضمام إلى الدولة الرستمية، الموافقة لها في المذهب، مستغلين وجود الإمام في الجبل وطمعاً في مساعدته²⁸⁷.

ومهما يكن من أمر فقد خرج الجند إلى «وادي الرمل» لقتال «هوارة»، ودخلا في حرب كانت الغلبة فيها لهذه الأخيرة، وفتحوا طرابلس وخربوها، فولى الجند مدبرين تلاحقهم قوات «أهل الدعوة». وما كان من إبراهيم بن الأغلب (184-196هـ) إلا أن جهز جيشاً يقوده ابنه عبد الله، وتمكن هذا الأخير من تحقيق الانتصار واسترجاع مدينة طرابلس، فأعاد بناءها. وحين طلبت هوارة النجدة من الإمام عبد الوهاب أقبل ومعه نفوسة حتى نزل طرابلس. وشن حصاراً عليها²⁸⁸ فكان عبد الله يقاتل من باب «هوارة» بعد أن سد باب «زناتة»²⁸⁹.

ويبدو أن الإمام واجه صعوبات جمة في فتح المدينة لخصائنها من جهة، فهي على «صور صخر جليل البنيان»²⁹⁰، ولما أبله أهلها من بسالة المقاومة من جهة أخرى، حتى إنه طلب من قواته العودة إلى الجبل. وما يوحى أن نفراً من جنده كان غير متحمس لهذه الحرب إن لم نقل كان يتعاون مع الأغلبية، إذ إن المصادر تشير إلى أن خطط الهجوم التي كان يرسمها تفتشى وتنتشر²⁹¹ ولا نستبعد أن يكون قد حدث انقسام في جيشه بانضمام بعضهم إلى عبد الله، مما أجبره على العودة إلى الجبل، خاصة وأن المصادر لا تتحدث عن إمدادات جديدة تزود بها الإمام بعد عودته، فلا يعقل أن يحدث هذا الانسحاب هكذا دون قتال وبعد أن شدد الحصار على المدينة، وتنتقل المصادر إلى الحديث عن مناوشات بين الفريقين، هذه المناوشات التي قتل فيها عالم نفوسة مهدي الويغوي، الذي ثني عليه المصادر الإباضية كثيراً، ذلك أنه خرج من المعسكر إلى شاطئ البحر - ربما رفقة مجموعة²⁹² يريد الدخول إلى المدينة من الجهة المطلة على البحر لأن المدينة محصنة حصينا جيداً من الجهة البرية، وعندما رآه العسكر سبحو إليه وقتلوه²⁹³.

287 - الباروني: الأزهار، ص198؛ محمود إسماعيل: الأغلبية (سياساتهم الخارجية)، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، الدار البيضاء، 1978، ص104-105.

288 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص286-287؛ الباروني: المرجع نفسه، ص197.

289 - الشماخي: السير، ص159.

290 - البكري: المغرب، ص7.

291 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص116-117؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص332؛ محمود إسماعيل: الأغلبية، ص106.

292 - يذكر الشماخي في سيره بأنه كان منفرداً، ينظر: ص161.

293 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص116.

وهو حي، وأجابه ابن عباد بأنه ليس عليه حج، لأن الطريق غير آمن، ومن شروط وجوب الحج الاستطاعة، وأمان الطريق، فلما وصلت ردود علماء المذهب، أخذ الإمام برأي أبي الربيع فأرسل من يحج بدله، ومدد الإمام إقامته في الجبل بين «أهل الدعوة» يعلمهم مسائل الصلاة فقط، وتقدر المصادر مدة إقامته في الجبل بسبع سنوات، ورغم ذلك لم يكمل أبواباً من مسائل الصلاة، وهذا يدل على سعة علمه بالفرائض²⁸¹.

ولم يكتف الإمام بالتعليم فقط، بل عقد وحضر مجالس القضاء، فالمصادر تذكر أنه اختصم إليه رجلان، وعندما لم يكن ابن مغطير حاضراً راح يؤجل الجلسة إلى أن حضر، وأصدر حكمه على أحدهما بأن وطنه بركبته وهو يصيح حتى طلب الغوث من الإمام فأمر بتركه، و تعتقد أن الإمام طلب حضور ابن مغطير لأن أحد المتخاصمين لم يفهم ما قاله الإمام فكان يسأل: «ماذا يقول الحضرمي»²⁸².

كما عين الإمام العمال على بعض المناطق، فولى سلام بن عمرو اللواتي على سرت، وزقون بن عمير على «قسطالية»²⁸³ واستغل طول إقامته في الجبل لتوطيد أركان الدولة، وتأمين الجبهة الشرقية، وخاصة وأن حدودها تتاخم دولة الأغلبية (184-296هـ) العدو التقليدي لبني رستم، ففي أثناء وجوده في الجبل حدثت مناوشات بين قبيلة هوارة الإباضية يتزعمها عياض بن وهب²⁸⁴ - الذي لم يرد ذكره في المصادر الإباضية - وبين جند طرابلس²⁸⁵ هذه المناوشات التي لم يتحدث عنها ابن الصغير المالكي بينما تناول الخلاف الذي تزعمه الأوس من هوارة²⁸⁶.

281 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص117؛ الدرجميني: المصدر السابق، ج1، ص66.

282 - الشماخي: السير، ص161.

283 - الشماخي: المصدر السابق، ص161.

284 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص286-287.

285 - لم تكن هذه أول ثورة تشعلها هوارة في طرابلس، فقد ثارت سنة 189هـ ضد عاملها «سفيان بن المهاجر» في عهد إبراهيم بن الأغلب، حيث أخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه ثم على أن يغادر المدينة فخرج منها بعد شهر فقط من ولايته، واستعملوا عليهم «إبراهيم بن سفيان التميمي» فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر فهزموهم واسترجعوا طرابلس.

286 - يذهب سعد زغلول بعيداً في تأويل صمت ابن الصغير حتى إنه يذكر أن الافتراق الثاني الذي حدث عنه هو نفسه الذي حدث في طرابلس رغم أن الرواية واضحة وصرحة وتبين أن الحرب كانت بين هوارة وبين الإمامة بسبب مصاهرة تمت، ويرى سعد أن نفوسة كانت ممثلة بقوة في الجيش ما يؤيد أن اللقاء بين الإمام عبد الوهاب وبين أوس هوارة كان غير بعيد عن جبل نفوسة إن لم يكن قد وقع في الجبل نفسه، والمعروف أن اللقاء تم على مجرى نهر جاف يقال له (أسلان) أو (أسلن) يبعد عن تاهرت بأربع مراحل وعن أرشقول بمرحلة، وهذا يفند ما قاله سعد زغلول.

ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص330.

وتصادف عودة الإمام إلى الجبل وفاة إبراهيم بن الإغلب مما جعل ابنه عبد الله يجنح إلى السلم. فصالح الإمام على أن «تكون المدينة والبحر للمسودة. وما كان خارجا فلإمام عبد الوهاب»²⁹⁴.

وبهذا الاتفاق طويت مرحلة من مراحل الصراع الأغلبي - الرستمي. وأصبحت قبائل هوارا التي كانت تستوطن أحواز طرابلس تابعة للدولة الرستمية وهي: بنو اللهان، ومليلة، وورسطفة. أما منازل هذه القبائل فهي - كما حددها اليعقوبي - من آخر عمل سرت إلى طرابلس²⁹⁵. ولم تكن هوارا وحدها معنية بهذا الاتفاق. بل هناك «بنو يسمكان» من بني دمر، ودمر بطن من بطون زواغة يقع بنواحي طرابلس²⁹⁶.

كما أرسل الإمام عبد الوهاب بعد عودته من حصار طرابلس حملة عسكرية على مدينة قابس. قاده «قطعان بن سلمة الزواغي»²⁹⁷. وتشير الروايات إلى أن عامل بني الأغلب امتنع عن الدخول في الطاعة فشدد عليه الحصار إلى أن استولى عليها. ثم انتقل إلى ما يليها من القرى التي تقطنها قبائل مطماطة، زنزفة، دمر، وزواغة فأخضعها ورتب العمال عليها²⁹⁸.

ولم يتمكن من خلال المصادر المتوفرة لدين من معرفة أسباب هذه الحملة التي عقبها الصلح مباشرة. وهل حققت الأهداف المرجوة منها؟ وهل تمكن «قطعان» هذا من الاستيلاء عليها فعلا وأصبح يدير شؤونها؟ فاليعقوبي (ت 284هـ) يذكر بأن بها عاملا من قبل ابن الأغلب²⁹⁹.

ولما عزم عبد الوهاب على العودة إلى عاصمة ملكه اجتمع إليه «أهل الدعوة» من النفوسيين، وطلبوا منه أن يولي عليهم عاملا. ويبدو من خلال رواية الدرجيني أن الإمام اختار لهم أحد وزرائه ولكنهم رفضوه. إذ كانوا يميلون إلى تولية السمع بن عبد الأعلى

294 - الشماخي: المصدر السابق. ص161؛ محمود إسماعيل: الأغلبة، ص106؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية، ط9، القاهرة، 1986، ج2، ص214؛ محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957، ص5، ص115-116.

295 - ينظر: صفة المغرب، ص7.

296 - ابن خلدون، كتاب العبر، مج6، ص264.

297 - الشماخي: السير، ص161؛ وفي ص203 يذكر بأن سلمة بن قطفة كان عاملا للإمام عبد الوهاب على قابس ولا ندري هل هو اسم لشخص واحد أم لشخص آخر نظرا لتشابه الأسماء إلى حد بعيد.

298 - الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها؛ الباروني: الأزهار، ص199.

299 - ينظر: صفة المغرب، ص7.

وزيره. ولبي الإمام طلبهم رغم أن السمع كان أحب الناس إليه وأنصحهم له. ثم توجه عائدا بركبه إلى تاهرت³⁰⁰.

ولنعد الآن إلى مسألة حج عبد الوهاب. وإقامته المطولة في الجبل وحره مع الأغلبة وما يحوم حول هذه الزيارة من شكوك وغموض. وقد تناول بعض الباحثين هذه المسألة بالتحليل وأبدوا رأيهم فيها. ومن بينهم محمود إسماعيل الذي يرى بأن خروج الإمام إلى المشرق لم يكن لأداء فريضة الحج إذ من غير المعقول أن يغيب عن تاهرت زهاء سبع سنين ينتظر فتوى من شيوخ المذهب المشاركة. والأرجح أنه كان يعد العدة للتوسع على حساب الأغلبة³⁰¹. أما سعد زغلول فيرى رأيا آخر، وهو أن خصوم الإمام في منطقة طرابلس كانوا سيسببون له المتاعب، خاصة لما لجأ إلى هناك «شعيب المصري» حليف يزيد بن فندين النكاري. ويضيف أن هذه الرواية تشبه إلى حد كبير الرواية الأغلبية الخاصة بالأمير إبراهيم بن أحمد عندما ترك المارة وسار للجهاد في صقلية ف قيل إنه كان يقصد الحج³⁰².

إن بقاء الإمام عبد الوهاب طيلة هذه المدة في جبل نفوسة بعيدا عن مركز سلطانه أمرا يدعو إلى الحيرة. فهل انتظار فتوى من المشرق جعله ينتظر هذه المدة؟ وهل كان انتقاله إلى المشرق للحج فعلا؟ ومن كان طيلة هذه الفترة يسير شؤون تاهرت؟

وأمام هذه التساؤلات فإننا نستبعد ما روته المصادر الإباضية من أن الإمام كان متوجها إلى الحج. ولكنه توقف بالجبل لأن شيوخ نفوسة منعه من جهة. ومن جهة أخرى ظل ينتظر وصول فتوى من المشرق. ذلك أنه لا يعقل أن إماما عالما مثل عبد الوهاب ظل مدة سبع سنوات يعلم النفوسيين «مسائل الصلاة» ورغم ذلك لم يكمل أبوابا منها. ويجعل أن من شروط الحج الاستطاعة، وأمان الطريق. ضف إلى ذلك أن ابن الصغير - وهو أحد المعاصرين للإمامة وعاش في تاهرت - لم يذكر أن عبد الوهاب خرج إلى الحج. بل سمع أنه حاصر مدينة طرابلس³⁰³. ويتضح جليا أن رواية الحج قيلت في فترة متأخرة نقلها أبو زكريا في سيره. ونحن نعرف أنه ألف كتابه بعد سنة (471هـ) (1078م). وإذا قارنا بين رواية خروج عبد الوهاب إلى الحج، ورواية سفر أبي اليقظان إلى مكة حاجا، نلاحظ أن مخاوف نفوسة هي التي حدثت لهذا الأخير. فقد روى ابن الصغير بأن بني

300 - ينظر: الطبقات، ج1، ص67؛ وينظر: علي يحيى معمر: الإباضية في ليبيا، ص79.

301 - ينظر: الأغلبة، ص105.

302 - ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص329-330.

303 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص45.

العباس بلغهم أن «مقدم الشراة» بالمغرب أرسل ابنه يرتاد البلاد ويتصل بأهل المذهب لتعبئتهم في انتظار قدوم أبيه من تاهرت. فألقي عليه القبض في مكة. وحبس في بغداد رفقة خادمه النفوسي³⁰⁴. ونستنتج مما ذكرناه أن رواية حج أبي اليقظان أسقطت على الإمام عبد الوهاب. فلما لم يجد مؤرخو المذهب تفسيراً لسفره إلى طرابلس - وهي أول زيارة يقوم بها إمام للمنطقة - وبقائه هناك مدة سبع سنوات. قالوا إنه سافر إلى الحج. ولكنه توقف بالجبل لأن «أهل الدعوة» هناك أدركوا أن إمامهم لن يلفت من قبضة العباسيين في مكة. فأرسلوا في طلب فتوى من المشرق.

وأما عن أسباب إقامته في الجبل فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الإمام كان يهدف من هذه الزيارة إلى تحقيق هدفين: الهدف الأول: يتمثل في العمل على الحفاظ على الوحدة الترابية للدولة. خاصة وأن الإمامة تكون قد أحست بوجود نزعات استقلالية بالجبل. قد يدعها «شعيب المصري» حليف النكارية الذي قدم إلى منطقة طرابلس. ومادام أن الدولة الرستمية هي الجبل. والجبل هو الدولة الرستمية فإن عبد الوهاب أراد أن يقضي هو شخصياً على هذه المتاعب المستجدة في بدايتها قبل أن تستفحل. وما انقسام الجبل فيما بعد إلى قسمين: قسم مال إلى تولية خلف بن السمح. وقسم رفض التولية دون استشارة الإمامة لدليل كاف على أن الإرهاصات الأولى للاستقلال. ظهرت قبل حركة خلف وأتباعه. وأما الهدف الثاني: فيتمثل في تأمين الجبهة الشرقية التي عانى سكانها من مضايقات الأغالبة. ولحسم الموقف ارتأى أن يقود العمليات العسكرية بنفسه. وبالإضافة إلى ذلك قام بتعيين العمال على النواحي. وهذه العملية ليست سهلة في مجتمع تطغى فيه في أغلب الأحيان روح العصبية القبلية على العصبية المذهبية إن صح التعبير. أما عن تسيير شؤون تاهرت مدة غيابه فإننا نميل إلى القول بأن ابنه أفلح هو الذي كان يشرف على تسيير دواليب الحكم.

ب - نفوسة والصراع الطولوني - الأغلبي:

بعد قدوم العباس بن أحمد بن طولون سنة (269هـ) (882م) إلى بلاد المغرب على رأس جيش للاستيلاء على دولة الأغالبة من الأحداث التي لم تعطها المصادر حقها من الدراسة. فاعتبرتها حادثة عارضة على الرغم من القوات والحشود التي سخرتها في هذه الغزوة. ولاشك أن هناك ظروفًا وأسباباً مهدت لها أهملها المؤرخون. واكتفت المصادر بالقول إن الأمير استغل غياب أبيه عن مصر فسولت له نفسه التوجه إلى إفريقيا وإخضاعها لسلطانها. خاصة وأن مستشاريه حطوا له من شأن إبراهيم بن

أحمد الأغلبي (261-289هـ) (874-901م). أمير هذه البلاد ولا تتفق المصادر عن تاريخ خروج ابن طولون من مصر. قيل سنة 265هـ (878م)³⁰⁵ و267هـ (880م)³⁰⁶ و269هـ (882م)³⁰⁷ وتذكر أنه خرج في قوة كبيرة قدرتها المصادر بثمانمائة فارس وعشرة آلاف رجل من السودان أبيه. وحمل معه من بيت المال في مصر ثمانمائة حمل دنانير. وفي الطريق أشار عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب بان يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر. فرفض لأنه كان يخشى عودة عساكر أبيه من بلاد الشام قبل تحقيق طموحه. وفي الوقت نفسه حتى لا يعطي فرصة لإبراهيم بن أحمد للاستعداد³⁰⁸.

وأرسل العباس كتاباً إلى إبراهيم مدعياً فيه أن أمير المؤمنين المعتمد (256-279هـ) قلده أمر إفريقية. وأنه يأمره بالدعاء له على منابرها والخروج لاستقباله. واستولى العباس على برقة وكان عاملها محمد بن قهرّب. ثم انتقل إلى لبدّة³⁰⁹ فخرج إليه عاملها الأغلبي لاستقباله. وعلى الرغم من ذلك أباح لجنده نهب أهلها وقتل رجالها وسبي نساءها. فاستغاث أهلها بأبي منصور إلياس عامل جبل نفوسة³¹⁰. وأرسل العباس كتاباً إلى زعيم نفوسة يأمره الدخول في الطاعة³¹¹. فأرسل إليه هذا الأخير جيشاً من خيرة رجاله من نفوسة والقبائل الإباضية الأخرى. يقدر عدده باثني عشر ألف فارس³¹². ولم يكن القصد من تجهيز هذه الحملة هو حماية الأغالبة. وإنما كان الهدف هو حماية وخذة الإباضية التابعين له. لأن بعض سودان العباس تعدوا على حرم البوادي³¹³.

ولما علم إبراهيم بن الأغلب بقدوم ابن طولون قاصداً طرابلس أخرج إليه أحمد بن

305 - ابن خلدون: كتاب العبر. مج 4. ص 434: النوبري: نهاية الإرب في فنون الأدب. تحقيق حسين نصار. مراجعة عبد العزيز الأهواني. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1983. ج 24. ص 129.

306 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج 1. ص 118.

307 - محمود إسماعيل: الأغالبة. ص 109.

308 - ابن عذاري: المصدر السابق. ج 1. ص 118: محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس. ص 138.

309 - هو حصن يقع بين طرابلس ومدينة شروس. ذكر البكري أن به آثار تعود إلى أزمان غابرة. سكنه في عصره قوم من العرب عرفوا بغاراتهم لجميع القبائل القريبة إليهم من البربر. ينظر: المغرب. ص 9.

310 - قيل إن الاستغاثة كانت من أهل طرابلس عندما حاصرها العباس فيما بعد. ينظر: الباروني: الأزهار. ص 317.

311 - رد إلياس عن رسالة أبي العباس بقوله: «قل لهذا الغلام: أما إنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي. فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك. وأنا على إثر رسالتي إليك».

ينظر: الباروني: المرجع نفسه. ص 318: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي. ج 3. ص 166-167.

312 - ابن خلدون: كتاب العبر. مج 4. ص 645-646: حسن إبراهيم حسن: المرجع نفسه والجزء ذاته. ص 166-167: معمر: الإباضية في ليبيا. ص 120-121.

313 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج 1. ص 119: الباروني: المرجع السابق. ص 317: محمود إسماعيل: الأغالبة. ص 109.

قرهب في ألف وستمئة فارس ليلا. فدخل طرابلس قبل وصول العباس إليها. وفيها حشد الجند. ثم أجه إلى لبدة فالتقى على خمسة عشرة ميلا منها. وقد تأخرت جمال العباس التي كانت تحمل البنود. فلم يكن بينهم إلا مناوشة يسيرة. انهزم خلالها ابن قرهب وعاد إلى طرابلس معتقدا أن مقدمة الجيش هي التي ناوشته. وسار العباس متقدما إلى طرابلس حتى وصلها فنصب عليها المجانيق. وحاصرها حصارا شديدا دام ثلاثة وأربعين يوما. ولما استغاث أهل طرابلس بإلياس - وهي الرواية الأرجح - قام هذا الأخير «محتسبا وناصرا جيرانه من المسلمين»³¹⁴.

وزحف إلياس بعساكره. وتمكن من إلحاق الهزيمة بالعباس فخرج إلى برقة بعد نهب أهل طرابلس لجميع عسكره. ولما بلغت أخبار ابن طولون إلى ابن الأغلب وأنه وصل إلى طرابلس. حشد الجند. ووفر الأموال حتى إنه ضرب حلي نساته دنانير ودراهم. وخرج بنفسه لملاقاته ولما علم بانهزامه استغل هذه الفرصة وراح يبحث عن الأموال التي أخذت من ابن طولون «فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا أن تؤخذ منه»³¹⁵. وعاد إلياس بقواته إلى الجبل. بينما راح ابن الأغلب يعيد الأمن إلى دولته. فقد فتك بأهل الزاب سنة 268هـ (881م). وفي سنة 280هـ (893م) أوقع برجال بلزمة بعد أن هدأت ثورة الدراهم* سنة 275هـ (888م)³¹⁶.

ومجمل القول فإن حملة ابن طولون فشلت فشلا ذريعا. خاصة وأنه وجد نفسه أمام قوتين: قوة نفوسة. وجند الأغلبية. ويبدو أنه لما أشار عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب بمصانعة البربر. كان يقصد استمالة القبائل الإباضية المناوئة للدولة الأغلبية لتقف إلى صفه. ولكن تعجله حال دون إتمام الصفقة. أما عن إدعاء العباس بأن أمير المؤمنين المعتمد قد ولاه إفريقية. فهذا أمر غير مؤكد تاريخيا. لأنه إذا كانت الخلافة غاضبة - كما سنرى فيما بعد - عن تصرفات إبراهيم بن أحمد. فإنها قد أمرته بالتنازل عن الحكم لابن عمه محمد بن زيادة الله. ولم نخبرنا المصادر بأن المعتمد ولي ابن طولون

314 - ابن عذاري: المصدر السابق. ص119.

315 - المصدر نفسه. ص119.

316- قامت هذه الثورة عندما ألغى إبراهيم بن الأغلب قطع النقود الصغيرة التي جرى التعامل بها. وضرب بدلها الدراهم الصحاح من الفضة. وبما أن هذا التبديل أحدث متاعب للتجار. أغلقوا حوانيتهم وخرجوا في تظاهرات حدثت خلالها مناوشات بينهم وبين الحرس. ولكن الأمور هدأت بعد تدخل إبراهيم بن الأغلب والفقير أبو حفص أحمد بن مغيث. ينظر: ابن عذاري. المصدر نفسه والجزء ذاته. ص120-121: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص128.

- ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص120-123.

على إفريقية. ولذلك فلا نستبعد أن يكون قد استغل غياب أبيه فعلا عن مصر. وكذلك الظروف السياسية التي كانت تمر بها الخلافة العباسية نتيجة ثورة الزنج والصراع بين المعتمد وأخيه الموفق لتحقيق طموح كان يعتقد أنه سهل المنال.

أما الإمامة الرستمية فلم تحرك ساكنا نظرا للضعف والهوان الذي بدأ يدب فيها. وتركت النفوسيين يواجهون أعداءهم دون دعم مادي أو حتى معنوي. والغريب في الأمر أنه أثناء الخلافات المذهبية بين أتباع المذهب تكثر الاتصالات بين نفوسة وناهرت. بينما لا نجد ذلك سواء في حملة ابن طولون. أو في حربهم ضد الأغلبية في «مانو».

ج - موقعة مانو 283هـ (896م): خلفياتها. أهدافها. ونتائجها:

اتسمت العلاقات الرستمية - الأغلبية بالطابع العدائي. وكان السبب في ذلك تشابك الحدود بينهما. خاصة وأن الرقعة الجغرافية للدولة الرستمية تحيط بالدولة الأغلبية من الشرق والغرب. ولم يكن هناك مانعا من تنقل القبائل من مكان إلى آخر. فهناك العديد من المدن الأغلبية تعيش فيها جاليات وإباضية تابعة روحيا للإمامة الرستمية. مثل طرابلس. ومدن بلاد الجريد. وجبل أوراس. وكثيرا ما كان يحدث الصدام بين رعايا الدولتين. ولا غرو أن يستغل بنو الأغلب المنشقون من الإباضية في إثارة القلاقل. والفتن. مثل: هوارة النكارية. وزواغة الخلفية. وقد بنى الأغلبية مدينة «العباسية» التي لا تحدد المصادر الجغرافية موقعها. سنة 239هـ (854م) لتكون قاعدة انطلاق الغارات على ناهرت. وقد خربها الإمام أفلح. وفي المقابل حاول الإباضية في جبل نفوسة الاستيلاء على مدينة طرابلس كما مر بنا. وموقعة مانو التي سنتناولها بالدراسة ما هي إلا نتيجة لهذا الصراع الذي دام طويلا إلى غاية سقوط الدولتين.

تتفق أغلب المصادر على أن هذه الموقعة كانت أعنف ضربة وأقسى هزيمة حُلَّت بالإباضية. بل إن هذه الهزيمة كانت - حسب المصادر الإباضية - السبب المباشر في انهيار الدولة الرستمية ككل. وعجزت عن الصمود أمام الزحف الشيعي. فقبيلة نفوسة كانت الساعد الأيمن للإمامة. فهي التي أقامت بسببها بسببها. كما بلغت مبلغا عظيما في العلم والتقى والعدل والورع³¹⁷ ولذلك انتشرت أخبارها مشرقا ومغربا حتى هابها من في هذه الجهات. فكثرت المكاتبات عن قوتها إلى بغداد من قبل القيروانيين. وأهل طرابلس. وتوحي المصادر الإباضية إلى أن اهتمام الخلافة العباسية بالرستميين في ناهرت

317 - الشماخي: السير. ص267.

وطرابلس بدأ منذ عهد الخليفة المتوكل (233-247هـ) (847-861م). حتى إن أبا زكريا في روايته يظهر إبراهيم بن أحمد الأغلبى وكأنه يزحف بقواته من شرق طرابلس قاصدا تاهرت. بناء على أوامر بغداد³¹⁸.

وما لاشك فيه أن الخلافة العباسية حرضت الأغالبية ضد الرستميين. ضف إلى ذلك فإن الأمير الأغلبى أراد من خلال ضرب الإباضية أن يغطي على أعماله الإجرامية وقساوته ضد رعاياه في تونس. وطرابلس. بأن يكسب رضاها وودها. وفي الوقت نفسه قد تكون قساوته ضد الإباضية من قبائل هواره في طرابلس سببا مباشرا في خروج نفوسه لقتاله. فالشماخي يذكر بأنه كان ظالما وقد أفسد حين قدم إلى طرابلس³¹⁹.

وخرج إبراهيم بن أحمد من تونس في العاشر من محرم 283هـ فأقام بمدينة «رقادة» إلى سبع بقين من صفر. ثم غادرها متجها إلى طرابلس متتبعا أثر ابنه عبد الله الذي سبق وأن سيره على رأس جيش لتأديب بوادي طرابلس. والاستيلاء على المدينة. وذلك سنة 281هـ (894م). أو متجها إلى مصر للثأر من ابن طولون. وفي الطريق اعترضته نفوسه. بين قابس وطرابلس. في موقع تسميه المصادر الإباضية بـ «مانو». وكانت نفوسه مصممة على قتاله. على الرغم من اعتراض عامل الجبل أفلح بن العباس الذي تولى الولاية بعهد من الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) وسعد بن يونس عامل قنطرة. ومعبد الجناوني. لأن إبراهيم بن أحمد كان يريد التوجه إلى مصر للثأر من ابن طولون. ويبدو أن ابن الأغلب لم يكن ينوي مواجهة نفوسه. بدليل أنه طلب منهم أن يتركوا له ساحل البحر مقدار نشتر عمامة ليمر هو وجيشه إلى وجهته فرفضوا³²⁰.

ولما رأى الأمير الأغلبى أن نفوسه مصممة على عدم ترك مجاز له تهيأ لقتالهم. ولكنه أثر أن لا يبدأ هو القتال. فقد خاطب أصحابه قائلا: «خذوا عدتكم. وشمروا على أنفسكم. وجوزوا على ساحل البحر ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم. فإن هم تركونا وطريقنا. وإلا ناصبناهم»³²¹.

وظل الخلاف قائما بين نفوسه. بين مؤيد. ومعارض لترك جيش الأغالبية وشأنه. حتى إن سعدا اتهم بالجبن والخيانة. وأنه أراد العودة إلى عمالته «قنطرة». واقتتل الجيشان

318 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 150؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 388.

319 - ينظر: السير. ص 268.

320 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص 151؛ الشماخي: المصدر نفسه. ص 268؛ الباروني: الأزهار. ص 343-344؛ سعد زغلول: المرجع السابق. ج 2. ص 389؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية. ص 326.

321 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص 151.

أعنف قتال. فلم تصمد نفوسة كثيرا حتى هموا بالانهزام. «فصارت تنهدم الرجال من الصفين كالحيطان»³²² وتطرح منهم خلق كثير في البحر حتى أحمر لون مائه من دمائهم. فلا عجب إذن أن قال ابن الأغلب «لو كان هذا القتل لله لكان إسرافا»³²³.

وفي خضم هذا القتل أمر أفلح بن العباس صاحب البند «شعبة الدجي» بأن يركزه كي لا ينهزم عنه أحد. فرفض ثم اقتتلوا مليا. وعندما أصر أفلح حفر له وأوقفه. وفر أفلح من ميدان المعركة. وترك رجال نفوسة يسقطون قتلى قرب البند. فرأى ذلك رجل من ذوي البصائر. فضربه بسيفه حتى وقع وعندما رأى ذلك بقية العسكر ولوا مدبرين³²⁴ وحملت نفوسة أفلح بن العباس هذه الهزيمة. فاتهمته بأنه صمم على تركيز البند رغم أن القوتين غير متكافئتين. ولأنه كان من الكارهين للخروج. وخرجت نفوسة من هذه المعركة بخسارة فادحة. إذ تقدر المصادر عدد القتلى فيها اثني عشر ألف. منهم أربعة آلاف من نفوسة أما البقية فمن مختلف القبائل. منهم حوالي أربعمئة عالم فقيه. في حين لم يتعد عدد الأسرى ثمانين أسيرا³²⁵.

ولم يرحم ابن الأغلب الأسرى. فعمروس بن فتح قاضي الجبل في عهد أبي منصور إلياس - وهو أحد الأسرى - أخذوا يقطعونه بالحديد من إبهامه حتى وصلوا إلى مرفقه. فاستشهد رافضا طلب العفو³²⁶.

ومهما يكن من أمر. فإن موقعة مانو هي الموقعة التي فل بها حد سيف نفوسة. وهي الموقعة التي فقدوا فيها أشهر علمائهم. والكثير من رجالهم. ولعل أصدق وصف لنتائجها ما عبر عنه الوسياني في قوله: «ذكر أن نفوسة لما قتلوا في وقت مانو فبقي من بقي منهم ولم يجدوا من يبين للناس أموالهم من الأثجار إلا العسفاء يعني الأجيراء»³²⁷. وفعلا فالموقعة كانت لها نتائج وخيمة على إمامة الظهور في بلاد المغرب. فعندما عادت نفوسة أدراجها تحصنوا في الجبل وتشاوروا في عزل قائدهم أفلح بن العباس. وتولية ابن عم له واتفقوا على ذلك. ما عدا أبي معروف ويدرن بن جواد حاكم

322 - النويري: نهاية الإرب. ج 24. ص 133.

323 - النويري: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما.

324 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص 152؛ الشماخي: السير. ص 269؛ معمر: الإباضية في ليبيا. ص 185-186؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية. ص 327-328.

325 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص 152؛ الشماخي: المصدر السابق. ص 269.

326 - البغطوري: سير نفوسة. و 2؛ الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 89؛ الشماخي: المصدر نفسه. ص 269.

327 - ينظر: السير. ج 2. و 11؛ يذكر أبو زكريا أنه لم يبق من علمائهم إلا أبي القاسم البغطوري وعبد الله بن الخير. وكانا يتوليان الفتوى في الجبل بعد النكسة. فلولاهما لعطلت إلى يوم القيامة. ينظر: كتاب السيرة. ص 154.

شروس، الذي كان يخشى الخلاف، وسرعان ما أعيد إلى منصبه بعد مضي ثلاثة أشهر فقط، لأن ابن عمه لم يحسن السيرة.

واستغل ابن الأغلب أفول «نفوسة» وانشغالها بتضميد جراحها، فانتقل إلى طرابلس وقتل ابن عمه، وأراد الزيادة فتفرق عنه أصحابه وعادوا إلى إفريقية، وكر من جديد على نفوسة سنة 284هـ (897م)، حيث نكل الرجال واستباح النساء، وقتل منهم الكثير وعاد محملاً بالأسرى³²⁸ ثم قصد «قنطرة» فباغت سكانها وقتل منهم الكثير، ثم اختار ثمانين من العلماء والفقهاء فألقى عليهم القبض، ومنها آتته إلى «تيزاج» - إحدى قرى نفزاوة - فأسر عالمها أبا يوسف النفوسى أحد مستجابي الدعاء، وقد استطاع الإفلات من قبضته عندما هبت عاصفة مظلمة حالت بينه وبين جند ابن الأغلب، ثم آتته رفقة ابنه عبد الله إلى تناونت «قرب نفزاوة»³²⁹. أما علماء وفقهاء قنطرة فقد أخذوا إلى القيروان وقتلوا عن آخرهم ونظمت قلوبهم في حبال ونصبت على باب تونس³³⁰.

إن المصادر الإباضية وغير الإباضية تتفق وتجمع على قساوة ابن الأغلب مع الأسرى من الإباضية وينفرد النويري برواية تؤكد ذلك بقوله: «قال له بعض رجاله: ليدع الأمير بعض من أحب من مشائخهم، ويسأله عن اعتقاده فإذا سأله علم أن ذلك لله، فأحضر بعضهم فقال: «ما تقولون في علي بن أبي طالب، فقال: نقول إنه كافر في النار من لم يكفره فقال إبراهيم: فجميعكم على هذا الرأي؟ فقالوا: نعم، قال: الآن طابت نفسي على قتلكم وجلس على كرسي وبيده حربة، فكان يقدم إليه الرجل منهم فيقد أضلاعه من تحت منكبيه ثم يطعنه فيصيب قلبه حتى قتل منهم خمسمائة رجل بيده وحده في وقت واحد»³³¹.

إن هذا النص يدعم وصف المصادر الإباضية لقساوة ابن الأغلب في التعامل مع الأسرى وفي الوقت نفسه يشير إلى أن الإباضية كانوا يكفرون علي ويكفرون من لم يكفره، والصحيح أن الإباضية لم يكفروا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بل كانت خطبه تتلى على ألسنة الأمة في مساجد تاهرت خاصة في الأعياد والمواسم الدينية³³². ولذلك فإن النويري لا يميز بين الإباضية وبين فرق الخوارج.

328-الشمخاني: السير، ص 269-270؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1، ص 130؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 328.

329 -الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 90-91؛ أبو زكريا: المصدر السابق، ص 156.

330 -الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 91.

331 -ينظر: نهاية الإرب، ج 24، ص 134.

332 -ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 121-122؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج 2، ص 285-384.

ويبدو أن إبراهيم بن أحمد قد أصيب بالجنون في آخر أيامه فقد «استحال طبعه وغلب عليه سوء المزاج فتغير عقله وساءت حالته وأسرف في قتل أصحابه وأولاده وبناته وحجابه»³³³. ويتفق ابن عذارى مع الشمخاني في القول بأنه اختل عقليا³³⁴ ويضيف المؤرخون أن فترة مرضه دامت سنوات كاملة حتى خافه الناس لأنه بالغ في القتل، فقتل من خدمه ونسائه وبناته، وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به ولذلك قرروا خلعه وبعثوا إلى الخليفة يشكون من عماله ويطلبون عزله، ولكنه تفتن لنفسه شيئا فشيئا قرب نهاية حكمه خاصة وأن الشيعة أصبحوا يهددون ملكه ويطرقون أبواب إفريقية والمغرب عامة، ففي سنة 289هـ (901م) أعلن التوبة، وعمل على استمالة العامة فرد المظالم وأعطى الفلاحين من خراج سنة وأعتق ممالئكه ووزع الأموال على الفقهاء ووجوه الناس³³⁵.

ونعود مرة أخرى إلى مناقشة خلفيات وأهداف ونتائج موقعة مانو للتوصل إلى معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى اصطدام نفوسة بالأغلبية، إن المصادر لا توضح لنا وجهة إبراهيم بن أحمد الحقيقية: هل كان متجها إلى طرابلس لتأديب محمد بن زيادة الله؟ أم إنه استشعر ضعف الدولة الرستمية في تاهرت، وانشغالها بحربها الأهلية فأراد أن ينهي مرحلة التعايش السلمي ويعتدي على نفوسة بغية القضاء عليهم؟ أم إنه كان متجها إلى مصر للثأر من أبي العباس أحمد بن طولون؟

وإذا بدأنا بالمصادر الإباضية فإن هذه الأخيرة تجمع على أن القصد من الحملة هو القضاء على نفوسة، يقول الدرجيني: «انتهز الصيت على نفوسة حتى اشتهر في بلاد المشرق عند ملوك المسودة لمكاتبات أهل بلاد القيروان وأهل طرابلس وغيرها من بلاد المغرب التي انتشرت بها دعوتهم، وكان ذلك أيام المتوكل ببغداد»³³⁶. فلما تواترت الكتب إليه من الجهات الغربية أن دعوة الرستميين قد تمت وأيامهم قد استقامت لا ينازعهم منازع، ويستنفرون من عنده جيشا ينتظم به إليهم ملك طرابلس والمغرب، فاهتز لذلك وحرّك إليه خاطره فوجه عسكره إلى المغرب وأمر عليه إبراهيم بن أحمد من بني الأغلب فتوجه إبراهيم بعسكره إلى المغرب قاصدا تاهرت فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة»³³⁷.

333 -الشمخاني: السير، ص 271.

334 -ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 129-130.

335 -ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 131-132؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 93؛ محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص 107.

336 -أخطأ الدرجيني حين ذكر بأن واقعة مانو حدثت في عهد المتوكل (232-247هـ) بل حدثت في خلافة المعتضد (279-289هـ).

337 -ينظر: الطبقات، ج 1، ص 87.

من خلال هذا النص - وهو لا يختلف عن رواية أبي زكريا- نلاحظ أن الحملة أرسلت من المشرق للتوجه إلى تاهرت وكلفت إبراهيم بن أحمد الأغلبي باعتباره ممثلاً للمسودة في هذه الربوع بقيادة هذا الجيش ولما علمت نفوسة بوجهة هذا الجيش خرجت من عرينها للتصدي له والحيلولة دون وصوله إلى حاضرة الإمامة. ونحن نستبعد مطلقاً هذه الرواية ولا يمكن الأخذ بها لسببين: أولهما: أننا لا نجد ذكراً لهذه الرواية في المصادر التاريخية الأخرى ولم نعثر على أدنى إشارة تدل على أن الخليفة المعتضد (279-289هـ) (892-901م) قد سير جيشاً إلى بلاد المغرب لمؤازرة الأغالبة في القضاء على الدول المستقلة التي لا يذكر على منابرها اسم الخليفة العباسي أضف إلى ذلك أن ظروف الخلافة في ذلك الوقت لم تكن أبداً تسمح بتسيير الجيوش إلى إفريقية. ثانيهما: أن الحملة لم تنج إلى تاهرت بعد القضاء على نفوسة فلو أرسل هذا الجيش من المشرق لما تخلى العديد من أفرادها عن مواصلة القتال. إذ تذكر المصادر أنه عندما اتجه إبراهيم بن أحمد إلى «عين تاورغا» خارجاً من طرابلس رجع كثير من معه إلى إفريقية. ولم يبق معه إلا أقل من النصف. فلما رأى ذلك انصرف إلى رقادة ثم إلى تونس»³³⁸. وتضيف المصادر أنه عاقبهم بدفع غرامة مالية مقدارها ثلاثين ديناراً سميت بـ «غرم الهاربين»³³⁹.

ونستنتج من هذا النص أن جل أفراد هذا الجيش هم من إفريقية وليسوا مشارقه. وإذا أردنا أن نذهب بعيداً في تحليل رواية أبي زكريا والدرجيني نقول: بأن اهتمام الخلافة العباسية بالدولة الرستمية ازداد منذ عهد المتوكل (232-247هـ) (846-861م) عندما ألقى القبض على أبي اليقظان رفقة خادمه النفوسي في مكة. يقول ابن الصغير «لما طاف وسعى (أي أبو اليقظان) كشفته رسل بني العباس إذ قدموا معه من عندهم. وقيل لهم إن ابن مقدم الشراة. قد قدم من المغرب من عند أبيه يرتاد البلاد ويرسل رسله في كل الآفاق إلى من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب. فحمل أبو اليقظان من مكة وحمل معه رجل من نفوسة كان يخدمه حتى ورد بهما مدينة السلام. والعامل إذ ذاك المتوكل»³⁴⁰.

أما الرواية الثانية: فتذكر بأن وجهة إبراهيم بن أحمد هي مصر. للانتقام من العباس بن أحمد بن طولون الذي استغزاه وأهانته سنة 267هـ (880م) طالباً منه التنحي عن إفريقية لصالحه. يقول النويري: «في سنة 283هـ حرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون

338- النويري: نهاية الإرب. ج24. ص134.

339 - ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص130.

340- ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص64-65.

بمصر»³⁴¹ وقد يبدو أن هذه الرواية صحيحة. لأنه مر بنا أن ابن الأغلب لم يكن يرغب أبداً في قتال نفوسة. بدليل أنه طلب منهم أن يتركوا له مجاز نشر عمامته فقط. وهو - في رأينا - أقصى تنازل قدمه لنفوسة. كما أنه واصل زحفه إلى أن وصل «تاورغا». وبلاد الأغالبة كما هو معروف تنتهي في لبدية. وكانت تاورغا تشكل أقصى ولاية برقة الخاضعة لبني طولون. ولذلك فقد وصل ابن الأغلب فعلاً إلى البلاد المصرية. ولكن إذا كان إبراهيم قد امتلأ قلبه حقداً على العباس بن أحمد بن طولون وأنه قرر منذ سنة 267هـ (880م) أن ينتقم منه. فإنه بالضرورة لا ينتظر ست سنوات حتى يتوفى ابن طولون. وابنه العباس. وإلا ما الفائدة من الانتقام إذن؟

أما الرواية الثالثة: فتقول بأن وجهة إبراهيم كانت طرابلس. وقد تعرض في طريقه للقبايل الإباضية. من لواتة. وهوارة. وزواغة. وغيرهم. فأفسد³⁴². فخرج إليه أبو منصور إلياس عامل الجبل «محتسباً. وناصر جيرانه»³⁴³. فإبراهيم كان يريد الوصول إلى ابن عمه أبي العباس محمد بن زيادة الله المثني. لأنه من النتائج التي تمخضت عن حملة إبراهيم على طرابلس هي مقتل أبي العباس ومقتل أهله بقساوة شديدة. فالمصادر تذكر أنه كان يكن حقداً دفيناً وكرهية شديدة لابن عمه الذي تصفه المصادر بأنه كان أكثر اقتداراً منه. وبالتالي فإن سمعة هذا الأخير كانت أحسن عند الخلافة. يقول النويري: «كان إبراهيم كثير الحسد له من صغره على علمه وأدبه»³⁴⁴.

وفي الحقيقة فإن السبب الحقيقي هو أن أبا العباس أصبح ينافس ابن عمه في الإمارة بالتزكية من الخلافة. يقول ابن عذارى: «وسبب قتله أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على جوره وسوء فعله بأهل تونس ويقول له: «إن انتهيت عن أخلاقك هذه. وإلا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله»³⁴⁵. بينما تفيد رواية النويري أن الخليفة المعتضد أرسل رسولا إلى تونس سنة 289هـ (901م) واستقبله إبراهيم في سبخة تونس. وبين الرسول للأمير أن الخليفة أرسله بناءً على غضب وسخط لشكوى أهل تونس منه. وأن الخليفة أمره باللحاق به. وأن يعتزل عن إفريقية. ويولي عليها ابن أبا العباس. وتضيف الرواية بأن إبراهيم كره المسير إلى المعتضد فأظهر التوبة ورفض الملك. واستدعى ابنه أبا العباس من صقلية ليؤول الملك إليه»³⁴⁶.

341 - ينظر: نهاية الإرب. ج24. ص133.

342 - الشماخي: السير. ص267.

343 - ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص119.

344 - ينظر: نهاية الإرب. ج24. ص134.

345 - المصدر السابق. ج1. ص129.

346 - المصدر السابق. ج24. ص135.

ويبدو أن هذه الشكوى هي الثانية التي رفعها سكان تونس. وأن توبيخ الخليفة هو الثاني كذلك ما دام أن الخليفة قد أمر إبراهيم أن يتنازل عن الملك لابنه وليس لمحمد بن زيادة الله المقتول.

ويرى محمد الطالبي ان إظهار إبراهيم بأنه يريد الخروج إلى مصر هي حيلة منه فقط للظفر بابن عمه وقتله. هذا الأخير الذي وصله التأييد الأدبي والرسمي للخلافة. وكأنه في الجملة نوع من المبايعة. ولذلك فعندما أقبل إبراهيم على فعلته تلك إنما كان يستهدف الخليفة عبر ابن عمه. وإذا كان قد أشاع بأنه سيعزو مصر. ومصر كانت مبدئياً ولاية تابعة لأمير المؤمنين في بغداد. هو رد آخر على رسالة الخليفة التي نقلها الرسول. وتناول فيها عليه. وما الصدام مع نفوسة سوى حادثة عارضة لم تكن ضمن مخطط الأمير³⁴⁷.

ويعارض هذا الرأي محمود إسماعيل الذي يرى أنه من غير المعقول أن يجهز إبراهيم بن أحمد حملة من عشرين ألف مقاتل. ويدخل في حرب مع نفوسة. حتى إن ماء البحر أحمر لونه من كثرة الدماء من أجل تحقيق هدف جزئي يتمثل في قتل ابن عمه. ويضيف أن الخليفة المعتضد لم يتدخل لإقصاء إبراهيم عن إفريقية إلا سنة 289هـ (901م) حين أمره - كما تقدم - بالتنازل عن الحكم لابنه³⁴⁸.

ويبدو أن محمود إسماعيل عندما اقتنع بأن هدف الحملة كان غزو مصر هو وقوفه على الرسالة الثانية المؤرخة سنة 289هـ (901م). ومن غير المعقول أن يفكر إبراهيم في الانتقام من أبي العباس بن أحمد بن طولون بعد أكثر من عشرين سنة 267-289هـ. إذن فإن هدف الحملة هو القضاء على منافسه في الإمارة. والرد على الخلافة. وفي الوقت نفسه تأديب القبائل الإباضية القاطنة بأحواز طرابلس. والتي كانت تسبب مشاكل لعماله في هذه الجهة مستغلاً الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الدولة الرستمية. وهي الفترة التي شهدت فيها فتنة محمد بن رباح. ومحمد بن حماد في إمامة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م).

2 - في المجال الفكري والعقائدي:

أ - الخلفية:

لما توفي السماح بن الأعلى المعافري عامل الإمام على جبل نفوسة لم يوصي لأحد

347 - ينظر: الدولة الأغلبية. ص325-326.

348 - ينظر: الأغلبية. ص80-81.

من بعده على الرغم من طلب الناس ووجوه أصحابه ذلك. واكتفى فقط بأن دعاهم إلى تقوى الله وطاعة إمامهم عبد الوهاب مادام في الطريق المستقيم. وكان لموته صدى عظيم في نفوس «أهل الدعوة» النفوسيين حتى إن العامة من الناس بادرت إلى تولية ابنه «خلف»³⁴⁹ تقريرا وعرفانا لأبيه. وتصف المصادر الإباضية هؤلاء بأنهم «أناس لا بصيرة لهم بالأمور. وأنهم ظنوا بأن عملهم ذلك هو أرفق بالمسلمين. وأوفق بأمر المؤمنين»³⁵⁰.

وقد عارض هذه التولية أهل الصلاح منهم: أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي. وأبو الحسن أيوب بن العباس. وغيرهم. معتبرين ذلك خروجاً عن التقاليد السياسية المعمول بها. والمتمثلة في موافقة الإمامة في تاهرت على ذلك. ورد بعضهم قائلاً: «نوليته فإن أبي أمير المؤمنين عزلناه»³⁵¹. وأرسل الجناح المعارض لتولية خلف وهو الجناح الذي أصبح يعرف بـ «السمحيين» رسالة إلى الإمام. وجاءهم الرد بأنه: «من ولي خلفاً من غير رضى إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين. ومن أبى من توليته فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السماح على عمالته التي ولي عليها «خلفاً» حتى يأتيه أمري»³⁵².

ويبدو من خلال كتاب الإمام عبد الوهاب أن «خلفاً» مارس فعلاً مهامه كحاكم للجبل. فعين العمال على النواحي دون انتظار تركية المركزية في تاهرت. ولذلك يمكن أن نعتبر حركة خلف حركة استقلالية تهدف إلى استقلال حيز طرابلس على تاهرت. ونشاط الباروني الرأي عندما قال بأن خلفاً كان يرغب في الاستقلال لما رأى وأتباعه في أنفسهم من القوة والكثرة. فعدد قبائل نفوسة ومزاتة تتجاوز مائة ألف فارس³⁵³.

349 - يتساءل سعد زغلول إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم إنه اسم تجريح أطلقه عليه المؤرخون من خصومه كما سيطلقون عليه لقب «الخبث بن الطيب» وهو التساؤل الذي نميل إليه نحن كذلك لأن المصادر الإباضية تتخذ دائماً مواقف معادية ضد المخالفين خاصة أن مصادر الوهبية هي التي وصلتنا دون غيرها. ينظر: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص333.

350 - الشماخي: السير. ص180: أبو زكريا: كتاب السيرة. ص120: الباروني: الأزهار. ص201: سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء والصفحة ذاتهما.

351 - الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

352- أبو زكريا: المصدر السابق. ص121: الدرجيني: طبقات المشايخ. ج1. ص69.

353- تزودنا المصادر الإباضية بمجموعة من التسميات كانت تطلق على أتباع المذهب الإباضي منها: «أهل الدعوة» وهو اسم أطلقه الإباضية على أنفسهم منذ بداية الحركة في القرن الأول الهجري. كما أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة المسلمين» أما تسمية «أهل الاستقامة» والتي يقصد بها كذلك أتباع المذهب فكانت تطلق في المشرق أكثر من المغرب. وأما التسمية الواردة في رسالة أبي عيسى فهي غير مستعملة بكثرة والمقصود منها فيما نعتقد أهل المغرب من الإباضية ليس إلا. ينظر: عوض خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان. ط1. عمان. 1982. ص98-99.

وقد بلغ هذه الخلاف علماء المذهب في المشرق لأنهم ظلوا يتبعون أخبار إمامة الظهور منذ تأسيسها سنة 160هـ (776م). فالمصادر تورد رسالة بعثها العلامة أبو عيسى الخراساني إلى أهل المغرب يحثهم ويرشدهم فيها إلى إتباع الحق. وجمع الكلمة ويثني فيها على الإمام عبد الوهاب. وعلى عامله السمع والد خلف. وينكر على خلف وأتباعه³⁵⁴.

وانقسم سكان الجبل إلى قسمين: قسم يدعم ويساند هذه التولية. وقسم آخر يرجئ ذلك إلى أخذ رأي الإمامة. ومن وقف مع خلف من العلماء: منيب بن إسماعيل بن درار الغدامسي، ويوسف بن سادين (سائد الفرستائي)، وأبو يوسف حجاج بن فوتين، الذي تراجع فيما بعد عن رأيه وعاد إلى صفوف أبي عبيدة عامل الجبل³⁵⁵. وانضم إليه كذلك «عبيد بن سيدي» الذي كان - كما قال الشماخي - مي يدعي النسك والتقى. وكان يحمل القمح والكباش للمشائخ³⁵⁶. فكان يبلغ الإمام كتابيا بكل ما يسمعه من أخطاء في القول أو في العمل من وجهاء أهل الدعوة. مع الزيادة زورا وبهتانا. دون أن يطلب منه الإمام ذلك. مدعيا أنه بذلك يقدم خدمة جليلة للدولة. ولما تظن الإمام لمكائده كتب إليه قائلا: «أعاذنا الله يا عمرو بن يانس من النزول بعد الطلوع. ومن الترك بعد الاجتهاد. ومن بغض المسلمين بعد محبتهم. ومن نفاق تخفيه الصدور. ومن اقتحام الأثنياء من غير تجارب»³⁵⁷. وتشير المصادر إلى أن هذا الكتاب لم يصله لأنه توفي. ولا نستبعد أن يكون قد تعرض للاغتيال انقاء لشهره.

إن هذا النص يريد من خلاله المؤرخون أن يوحيوا لنا بأن الإمام عبد الوهاب كان له موقف مناهض لأتباع خلف. إذ اتهم عمرو بن يانس بالنفاق وببغض المسلمين من أهل الدعوة. وفي الوقت نفسه يعبر عن عدم رضا النفوسيين عن سلوك وجهاء «أهل الدعوة» في المنطقة. كما يمكن أن نستشف منه رغبة النفوسيين في الانفصال عن الإمامة. خاصة وأن أتباع خلف لم يكونوا كلهم من دهماء المجتمع الذين ليست لهم بصيرة بالدين مثلما تقول المصادر. بل انضم إليه مجموعة كبيرة من العلماء المعروفين وهذا ما يدعم فكرة الانفصال. أضف إلى ذلك أن القبائل التي آزرت «خلف» كثيرة. وعلى الرغم من أننا لا نعرفها بدقة إلا أن المصادر تشير إلى بعضها كزواغة، بني يفرن، نفوسة وسكان

354 - ابن سلام: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، تحقيق: رت. شفايرتز وسالم بن يعقوب. دار إقرأ، ط1، بيروت، 1985، ص165؛ الباروني: المرجع السابق، ص229.

355 - الشماخي: السير، ص187؛ الباروني: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

356 - المصدر نفسه، ص186.

357 - البغطوري: سير نفوسة، و4:1؛ الباروني: المرجع نفسه، ص227.

مدينة شروس³⁵⁸. ويذكر ليفيسكي بأن الخلفية انتشرت في أماكن أخرى مثل كيكلة، وبابل، وتقبال. وفي المنطقة الشرقية من جبل نفوسة وساحل إقليم طرابلس، وظل أتباع خلف موجودين في هذه النواحي إلى غاية القرن السادس الهجري. ويضيف نقلا عن L. Massignon بأنهم موجودون إلى الوقت الحاضر في مدينة «غريان»³⁵⁹ وتجدر الإشارة في هذا السياق أن النزعة الاستقلالية بين الإباضية لم تقتصر على إباضية حيز طرابلس، بل انتشرت في جزيرة جربة كذلك. وسنرى أن قبائل زواغة القاطنة هناك قد آوت حفيد خلف وآزرتة.

لقد أحدثت «الخلفية» بتزعمها للحركة الانفصالية في الجبل شرخا عميقا في علاقة الإمامة بالولايات التابعة لها. فظلت المراسلات مستمرة بين الإمامة والجبل، وعندما وصل إليهم الكتاب الأول من تاهرت وعلموا ما فيه من تصويب للجماعة التي رفضت التولية وتخطئة أتباع خلف راسلوه ثانية يلتمسون منه أن يجيز توليته فرفض، وأرسل كتابين: أحدهما موجه إلى خلف يأمره فيه بتقوى الله واعتزال أمر المسلمين كافة. والآخر فيه توليته. وطلب منهم الإمام أن يدفعوا إليه الأول. فإن امتثل لأوامر الإمام أطلعوه على الكتاب الثاني. وإن رفض تركوه. وفي رواية ثانية أن الإمام أرسل أمناء من قبله إلى جهة طرابلس، وعهد إليهم توليت خلف على جهات طرابلس إن وجدوه قد اعتزل وأطاع الله. وإن وجدوه مصرا على الخلاف رافضا أمر الإمام رفضوه. وقد طلب منهم الإمام أن يبلغوا أهل الصلاح بأنه تبرأ منه، ويجب عليهم اجتنابه «حتى يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين»³⁶⁰.

إن الاختلاف في الروايات يحتم علينا طرح مجموعة من التساؤلات محاولين معرفة الأسباب التي جعلت الإمام عبد الوهاب يبعث برسالتين إحداهما تدعو خلف إلى الدخول في الطاعة وإعلان التوبة. والأخرى يقبل فيها الإمام تعيينه. أما التساؤل الثاني فالغرض منه معرفة الدوافع التي جعلت نفوسة تراسل الإمام ثانية تطلب منه أن يجيز لهم توليته على الرغم من أن الإمام كان قد حسم موقفه في الرسالة الأولى والمتضمنة - كما مر بنا - تصويب الجماعة التي رفضت توليته.

وللإجابة على هذه التساؤلات فإننا نميل إلى القول بأن الكتابين اللذين أرسلهما الإمام عبد الوهاب لم يرسلنا - على الأرجح - في وقت واحد. بمعنى أن الإمام خاطب

358 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص84-85؛ الباروني: المرجع نفسه، ص227.

359 - T. Lewicki: Les Subdivisions De L>Ibadiyya, Studia Islamica Larousse, Paris, 1958. T9, p7980-.

360 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص69.

«خلف» في الرسالة الأولى داعيا إياه الدخول في الطاعة. ولما كان رد هذا الأخير سلبيا بعث إليه بكتاب التعيين معترفا بولايته وانفصاله عن الإمامة. وأثرا لسياسة الأمر الواقع. ولما توفي عبد الوهاب وتولى ابنه أفلح الإمامة تراجع عن قرار أبيه فاستمر الخلاف. أما مراسلة نفوسة الثانية فهي الأخرى جعلنا نرجح القول بأن الاستقلاليين كانوا يمثلون الأغلبية. وبالتالي فإن الأقلية الباقية هي التي ترجت من الإمام توليته خوفا على حياتها ومصالحها. ثم بماذا نفسر اعتذار أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني للإمام حين ولاه أمور الجبل بقوله: «أنا ضعيف. أنا ضعيف. أنا ضعيف»³⁶¹. ألا يعني هذا الاعتذار هروبا من المسؤولية وإدارة الظاهر للإمامة؟ أي فهم من ذلك أن أبا عبيدة اقتنع بأنه يتعسر عليه تسيير شؤون الجبل في الوقت الذي مالت فيه الأغلبية إلى خلف؟

ومهما يكن من أمر فالمصادر تذكر أنه لما اطلع خلف على الكتاب أبي واستكبر ورأى أتباعه أن يكتبوا إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل يستفتونه إذ هو يومئذ واسطة العقد ورأس من بالمشرق. والمقدم في الأمور بعد الربيع. وأبي المهاجر وأبي غسان. وأبي أيوب³⁶². فأجابهم بمثل جواب الإمام عبد الوهاب بتخطئة من ولى خلفا. ونصحهم بتقوى الله وطاعة الإمام. ولما جاءت الفتوى في غير صالحهم سعدوا الموقف وأعلنوا إنكارهم لإمامة عبد الوهاب. وزعموا أن إمامهم هو «خلف» مدعين أن حوزة طرابلس منقطعة عن تاهرت وبعيدة عنها. مما يحق لهم أن يكون لهم إمامهم الخاص. حينئذ قام عبد الوهاب بتولية أبي الحسن أيوب بن العباس الذي اشتهر في حرب الواصلية ونال إعجاب الإمام ورعيته في تاهرت³⁶³. ونظرا لبأسه وشجاعته وقوته في الحق هابته. فلم تحرك الخلفية ساكنا إما لخوفهم منه. وإما لعدله واستقامته³⁶⁴.

ويبدو أن اتصال نفوسة بعلماء المشرق مرة أخرى هو لإخراج الإمامة. بإبلاغها بالخلاف الذي بدأ يشتد بين أهل الدعوة. لأن القضية هي قضية سياسية أكثر منها دينية. وبالتالي لا تحتاج إلى فتوى لأن المطلب الوحيد لخلف وأتباعه هو الفوز بتسيير شؤونهم بكل حرية دون حاجة ماسة إلى تدخل الإمامة. فلو كان الخلاف في المذهب نفسه لقلنا أن طلب الفتوى ضروري بل واجب. ونلاحظ بأن فكرة الاستقلال المذهبي لم تطرح أبدا

361 - الشماخي: السير. ص182؛ الباروني: الأزهار. ص206.

362 - الشماخي: المصدر نفسه. ص181؛ الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص70؛ أبو زكريا: كتاب السيرة. ص122.

363- الشماخي: المصدر نفسه. ص181-182؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص335.

364 - الشماخي: المصدر نفسه. ص182.

سواء في الحركة الخلفية أو في غيرها. وإذا قارنا هذه الفتوى بالفتوى التي طلبتها الإمامة إبان حركة يزيد بن فندين النكاري. فإننا نقول بأن هذه الأخيرة كانت من صميم الدين. إذ كان الهدف منها هو الإجابة على سؤال مهم وهو: هل يجوز إمامة المفضل مع وجود الفاضل؟

وظل الجبل على هذا الوضع إلى أن توفي أبو الحسن. فراسل وجهأه الإمام يطلبون منه أن يولي عليهم أفضلهم - وهو أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني - لتقواه. وزهده. فوافق الإمام لأنه كان يميل إلى من ليست له رغبة في تولي المناصب. ويبدو أن أبا عبيدة لم يكن يعلم بذلك حيث أخبروه برسالة الإمام عبد الوهاب وما أمرهم به من توليتهم إياه على أنفسهم. فامتنع معتذرا بأنه ضعيف لا يستطيع تحمل هذه المسؤولية خاصة في هذه الظروف التي يمر بها الجبل وأحواله. فكاتبوا الإمام ثانية يخبرونه بامتناعه فأجابهم بأنه لا يقلد أمورهم إلا رجلا يقول: «أنا ضعيف». وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين³⁶⁵.

ويتضح جليا مما سبق أن موقف الإمامة اتسم باللين عكس المواقف السابقة. ولم تتدخل في تعيين عامل على الجبل. بل تركت الأمر لنفوسة لتختار من تراه مناسبا لهذا المنصب ويحظى قبوله بالإجماع. وأمام هذا التغيير في المواقف يبدو أن الإمامة رأت أن تدخلاتها المباشرة في شؤون الجبل قد سبب لها متاعب جمّة. وبالتالي ارتأت ترك الأمر شورى بين النفوسيين. ولو سعدت في مواقفها ربما حدثت القطيعة وهذا ما تخشاه الإمامة لأنها تعي جيدا فضلهم في إقامة إمامة الظهور. فأثر الإمام عبد الوهاب عدم التدخل تجنباً للمشاكل خاصة وأن التجارب أثبتت أن الإمام معرض في كل حالة إلى عرض مشاكله على المشاركة من طرف رعيته وهذا طبعا ما لا يرضيه. لأنه من مصلحته أن يحافظ دولته على السمعة نفسها التي كسبتها عند المشاركة في عهد أبيه عبد الرحمن. يذكر ابن الصغير على لسان المشاركة قولهم: «قد ظهر بالمغرب إمام ملاء عدلا وسوف يملك المشرق ويملاء عدلا»³⁶⁶. وفي موضع آخر يضيف قائلا: «اجتمعت الإباضية بالمشرق وتراسلوا فيما بينهم. وقدم القوم وجمعهم البصرة فقال بعضهم لبعض. إذ اتصلت بهم الأخبار من كل الأقطار مع ما جاءتهم به رسلهم ما عاينوه وشاهدوه. إمامكم بالمغرب خلف من أبي بلال مرداس بن أدية ومن حمزة الشاري فلا تدخلوا عليه مالا ولا تحبسوا عنه عطاء»³⁶⁷.

365 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص124-125؛ الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص71؛ الشماخي: نفسه. ص182.

366 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص32.

367 - المصدر نفسه. ص37.

جاء في سير نفوسة أن أبا عبيدة امتنع واعتذر بحجة أنه ضعيف المال. والبدن. والعلم. وكتب إليه الإمام: «إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوي الله بذلك بدنك. وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا يصلتن التوكيتي. وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك»³⁶⁸. ونلاحظ من خلال هذا النص أن الإمامة وكأنها تغريه بأن وضعت بيت المال تحت تصرفه إذا كان في حاجة إلى المال. وتفتتح له من يساعده.

وتضيف المصادر أن أبا عبيدة طلب مهلة ليستشير. واستشار عجزوا تسكن في موضع يقال له «إرجي أزمار» معروفة بعلمها وورعها وتدينها. فأشارت عليه بالدخول في أمور أهل الدعوة. وتولى أبو عبيدة تدوون الجبل فأحسن السيرة. وساس الرعية ولم ينكر عليه أحد بل رضي عنه وجهاء نفوسة. مثل: أبي زكريا وأبي مرداس. وأبي الحسن الأبدلاني. وغيرهم. وفي ولايته أصبح خلف يشن الغارات ويتفاهم خطرته يوما بعد يوم مما حدا بأبي عبيدة أن يكاتبه طالبا منه الكف عن الغارة. فأبى معلنا عدم اعترافه بولايته. عندئذ اتصل بالإمامة طالبا منها السماح له للتصدي لغاراته. ويبدو أن الإمام لم يكن يرغب في اقتتال الأخوة فطلب من عامله أن يلاطفه ويلاينه إلا إذا فاجأه³⁶⁹.

ولم يمض وقت طويل حتى توفي عبد الوهاب (211هـ) واعتلى عرش الإمامة ابنه أفلح (211-258هـ) (826-271م). فاستغل هذا الظرف بأن جمع أتباعه في ناحية «تيمتي»³⁷⁰ وما يليها من الشرق معلنا العصيان. ومرة أخرى يطلب أبو عبيدة الإذن لقتال «خلف» من الإمامة بعد أن تولى أفلح الحكم. ويأتي الرد بوجوب الملاطفة والملاينة رغم تمادي خلف في الفساد ونهب الأموال وقتل الأنفس. وقد ساعدت الظروف الطبيعية على انضمام العديد من الناس إلى صفه وانتقالهم إلى حيزه في «تيمتي». ذلك أن جفافا حل بجهة أبي عبيدة فمال الناس إلى خلف طلبا للخصب³⁷¹. ولا ندري هل كان انضمامهم إلى خلف بسبب الجفاف حقا؟ أم إن خلفا كسب أنصارا جددا يدعمونه ويساندونه في مطلبه الانفصالي؟ خاصة وأن أفلح أبدى هو الآخر مرونة في التعامل مع خلف. إن لم نقل أثبت عجزه في التصدي للمعارضة. فصرف النظر عن الجبهة الشرقية. خاصة وأن

368- البغطوري: سير نفوسة. و62: الشماخي: السير. ص182.

369 - البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها: أبو زكريا: المصدر السابق. ص127: الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص71-72: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص337.

370 - هي إحدى قرى «جادو» تقع في الجزء الشرقي من الجبل سكنها في زمن الباروني عرب الرجبان. ينظر: الأزهار. ص222.

371 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص129-130.

بوادر معارضة شديدة بدأت تظهر في عاصمة دولته نفسها. وهي التي تشكل خطرا عليه أشد من خطر الخلفية. فالإمام أفلح مستعد للتنازل عن تبعية الجبل لحكمه. وغير مستعد بالتأكيد لفقدان ملكه في تاهرت. وما يدعم ذلك ما ذكره ابن الصغير: «كانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة. حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه. فلما رأى ذلك أرش ما بين كل قبيلة وما جاورها فأرش بين لواتة. وزناتة. وما بين لواتة. ومطماطة. وما بين الجند والعجم. حتى تنافرت النفوس ووقعت القلوب»³⁷².

وأمام كثرة عدد خلف وعدته قرر الخروج قاصدا أبي عبيدة. فقام هذا الأخير بحشد قواته مهينا نفسه للدفاع وخرج بعيدا عن الجبل للقائه. وقبل أن يلتحم الجيشان أرسل خلف سرية من الجند للاستخبار أو لناوشة طلائع أبي عبيدة. ولم يشعر بهم حتى غشوهم نهارا فأمر أصحابه بالكف حتى يعلموا ما يريدون. ولما أغاروا على «أدرف»³⁷³ وقتلوا نحو عشرة من سكانها ونهبوا الأموال أمر أبو عبيدة أصحابه بقتالهم. فقتلوا منهم الكثير وأرغموا على الأدبار وعاد خلف إلى «تيمتي» ورجع أبو عبيدة إلى إجنان³⁷⁴. وكلاهما ينتظر المعركة. ويبدو أن أبا عبيدة أرهفته ضخامة عدد قوات خلف. فنراه يعترف له باستقلال حيزه عن ولايته. حيث كتب إليه قائلا: «إذا نزعت يدك من الطاعة. فكن في حيزك. وأكون في حيزي»³⁷⁵. ولكن خلف أبي وتمادي في النهب والقتل مدة سنة. ورفض التعايش السلمي على أساس أن ينفرد كل منهما بناحيته. ونعتقد أنه كان يطمح في رئاسة الجبل كله لا حيز طرابلس فقط. وحاول بمختلف الوسائل الترغيبية والترهيبية. ترجيح كفته. فاستمال الرجال بالأموال والإقطاعات. وبالغ في إرهاب الناس. حتى إنه قتل خطأ بعض أتباعه ظنا منه أنهم من رعية أبي عبيدة³⁷⁶.

واشتعلت الحرب من جديد. حيث آجّه خلف بعساكره نحو أبي عبيدة. وخرج هذا الأخير بدوره للقائه بعيدا عن الجبل. في قلة من الرجال لا يتعدى عددهم ثلاثمائة أو سبعمائة. في حين بلغت قوات خلف أزيد من أربعين ألف³⁷⁷.

372 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص63.

373- هي قرية تبعد عن جادو بمسافة قصيرة. ورد ذكرها باسم «ويدرف» و«تسمات درف» ينظر: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاتها. ص72-73.

374 - هي قرية تقع في أرباض «جادو» في سفح الجبل. تبعد عن «طرميسة» بأربعة أميال. اشتهرت هذه القرية بكثرة العلماء فكان يجتمع في مسجد أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني سبعون عالما لا يرد أحدهم السؤال إلى الثاني إلا في طريق الأدب. ينظر: معمر الإباضية في ليبيا. ص202.

375- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص131: معمر: المرجع نفسه. ص96: سعد زغلول: المرجع السابق. ج2. ص344.

376 - الشماخي: السير. ص183.

377- المصدر نفسه. ص184.

إن هذا التفاوت في العدد بين الطرفين الذي تورده المصادر الإباضية هي ظاهرة نلاحظها في كل مصادر التاريخ الإسلامي. ولكن القصد هنا من هذا التفاوت هو الإيحاء بأن أصحاب أبي عبيدة - كالبدرين - فرغم قتلهم فهم «أهل بصائر يموتون على ما بأيديهم من الحق. لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم»³⁷⁸. ويمكن كذلك أن نستنتج من هذا التفاوت - إن كان صحيحا طبعا - ان خلفا كان في مركز قوة لا يستهان به. وبعبارة أخرى إن أعداد المطالبين بالاستقلال تفوق عدد المتمسكين بالوحدة.

وقبل بداية المعركة أرسل خلف رسولين إلى أبي عبيدة يطلب منه خلع ولاية الإمام أفلح. ويثبت ولايته بغير سبب ولا حدث. واحتج عليه أبو عبيدة بطاعة والده السماح الإمام عبد الوهاب. ورفض حجة انقطاع الحوزات التي ادعاها. وعاد الرسولان ليخبرا زعيمهما بما قاله. حينئذ أمر عسكره بالاستعداد للقتال بترتيب الصفوف. وتذكر المصادر أن نكاريا أراد أن يثبط عزيمة أبي عبيدة. بأن نصحه بأن لا طاقة له بخلف. وعساكره. ولكنه لم يأخذ بنصيحته بل حلف له بكل اللغات التي يعرفها من بربرية. وعربية. وكامية. بأن يقاتله³⁷⁹.

ونفهم ما سبق أن النكار من بقايا أتباع يزيد بن فندين كانوا في صف خلف ما يدعم كذلك فكرة الانفصال. وأما السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا خاطب أبو عبيدة ذلك النكاري بالعربية. والكامية؟ أمكن أن نستشف من ذلك وجود جماعات من العرب. وجماعات من الخدم الكاميين في صفوف خلف؟ خاصة وأن المصادر أشارت - كما سنرى - إلى تجارة الرقيق في الجبل خاصة في قرية «ويغو». وللأسف فإن هذه التساؤلات تبقى دون إجابة نظرا لصمت المصادر.

ويبدو أن شقاقا قد حدث في صفوف خلف. حيث إن أحد أصحابه نصح أبا عبيدة حين اقترب الجيشان بالرجوع إلى الجبل قائلا له: «أوي إلى الجبل بأصحابك. فإن كانت لكم الدائرة أدركتم ما رجوت. وإن كانت عليكم كنتم في حصن من عدوكم»³⁸⁰. وأخذ أبو عبيدة بنصيحة النكاري. ويرى الباروني أن المكان يسمى «قصة المصلى» وهو قريب من الجبل وفيه مصلى ينسب إلى أبي عبيدة. وربما هو المكان الذي يوجد فيه المسجد الجامع المسمى «أمي بيدت». لأن اللفظ يبدو أنه منحوت من «عمي عبيدة» نحتا بربريا بعد تصحيف لفظ (عمي) وموقعه في وسط جادو³⁸¹.

378 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص73.

379 - الشماخي: المصدر السابق. ص185.

380 - البغطوري: سير نفوسة. و63.

381 - ينظر: الأزهار: ص226.

وظن خلف أن ذلك هروبا من الميدان. خاصة وأن قواته تعززت بأهل شروس الذين أقبلوا بسلاحهم لمؤازرته.³⁸² فهيجوا حرارة الخوف في صفوف خصومه. ولفرغ المعنويات ألقى أبو عبيدة خطبة يرغب فيها أصحابه في الجهاد. وتم اللقاء غير بعيد من قرية «اجناون» بالجبل. عشية الخميس 13 رجب 211هـ (836م) وكانت البداية المبارزة حيث خرج من عسكر خلف «عبيد بن سيدي» بين رجلين. وخرج من الجانب الآخر أبو عبيدة. وأبو مرداس والعباس بن أيوب. وتمكن هؤلاء من قتل خصومهم³⁸³.

وأبلى أبو عبيدة ورجاله حيث أمعنوا القتل في الخلفية حتى ولوا مدبرين. وتتبعهم إلى أن خرجوا من حوزته. مما يدل على أن هدف أبي عبيدة دفاعي أكثر مما هو محاولة للقضاء على هذا الشقاق نهائيا. ودخول سكان المنطقة إلى الطاعة. وتحدثت المصادر عن بطولة العباس بن أيوب في هذه المعركة. حيث كان «يضرب في أعراض الخيل ويكشفها يمينا وشمالا. قد حمى الميمنة والقلب والميسرة»³⁸⁴.

وعاد أبو عبيدة إلى مركز حكمه بالجبل. وانسحب خلف مهزوما إلى «تيمتي». وبدل أن يتراجع هذا الأخير عن مواقفه نراه يتمادي في أعماله العدوانية ضد أتباع أبي عبيدة. فأبو زكريا يذكر بأنه أخرج من «تيمتي» جميع من فيها من نفوسة. وغيرهم. من غير المتعاطفين معه. وأمهلهم ثلاثة أيام فمن وجد بعد ذلك هدر دمه. ولم يستثن من ذلك اليتامى والأرامل والمساكين³⁸⁵.

ووضعت الحرب أوزارها. وأظهر العديد من أتباع خلف التوبة كما تقول المصادر. وربما استسلموا. وصادف وقف الاقتتال وفاة أبي عبيدة. وفي الفترة التي كان أهل الدعوة يتشاورون فيها مع الإمامة فيمن يخلفه. حرك «خلف» من جديد وبدأ في إعداد العدة وتجهيز الجيوش. وبمجرد تولي العباس بن أيوب بن العباس الولاية بعث إليه طالبا منه الكف عن العدوان والاعتداء على أموال الناس. وإزهاق أرواحهم. ولما علم بقدمه إليه استعد له وتشابك مع قواته. ولما لم ينهزم «خلف» بسرعة طلب أبو مرداس مهاصر التوبة من العباس قائلا له: «تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئا ما وقع منك. وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل»³⁸⁶. ورغم ذلك اندفع العباس إلى

382 - المرجع نفسه. ص227.

383 - البغطوري: سير نفوسة. و63. الشماخي: السير. ص186. الباروني: المرجع نفسه. ص227-228.

384 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص134.

385 - أبو زكريا: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

386 - البغطوري: سير نفوسة. و38.

الميدان وتمكن من إلحاق الهزيمة بخلف. وطارده حتى تجاوز «وادي الآخرة»³⁸⁷ وهو آخر حد لحوزة العباس. ولكن أصحابه ظلوا يغيرون. أما أبو مرداس فظل هو الآخر يقدم النصيحة للعباس حيث طلب منه أن يعطيهم فرصة لعلمهم يتوقون ولكنه صمم على لقائهم وتخليص الجبل من شغبهم مما جعل أبو مرداس يهدده بالنداء في الناس بأن يرجعوا. فلما رأى هذا الإصرار استجاب له موضحاً لأصحابه بأن الزاد نفذ والكرع ضعف. وهذا لا يسمح لهم بمواجهة خصومهم³⁸⁸.

ولم يعط هذا التريث أية نتيجة حيث واصل خلف حملاته. ولما جهز له العباس حملة للرد عليه فر من أمامه. ثم عاد العديد من رجال العامل إلى أوطانهم بعد أن استأذنوا من قائدهم. خاصة وأن الموسم موسم زراعة. وأغلبهم متطوعون. وكانوا في حاجة إلى استغلال الأمطار التي هطلت وهم في ميدان المعركة. وبعد انقضاء موسم الحرث. والبذر. جهز العباس حملة أخرى. هذه الحملة التي تغيب عنها أبو مرداس. وأبو الحسن الأبدلاني. ولم يشأ أن يسير دون مرافقتهم له حيث رجح يلتمسهما مخافة أن يكون قد وقع حدث دون أن يعرف. ولكن الشيخين تعبا من المسير ففضلا الاتجاه إلى «أغرميمان»³⁸⁹ بـ «تغرمين»³⁹⁰ لزيارة «أم الخطاب» وهي عجوز عرفت بالصلاح والتقوى. ولما علم العباس سبب تخلفهما. تعقب خلف. واستطاع أن يقضي على أسباب الفتنة. عندما هزمه في موضع يسمى «فاغيس» القريب من «تيمتي»³⁹¹.

وطلب العباس من أصحابه عدم اتباعهم. ولكن أصحاب الرأي اتفقوا على إخراجهم من حيزهم. فاقترفوا أثرهم حتى تجاوزوا مدينة لالت (لالوت).³⁹² وهو نهاية حكمهم آنذاك

387- هو واد عميق ينحدر من الجنوب إلى الشمال شاقا جبل نفوسة. وتنتشر على ضفتيه مجموعة من القرى: ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا، ص207.

388- البغطوري: المصدر السابق، و38.

389 - هي بلدة تقع ناحية «تغرمين» بالجبل. ومعناها بالبربرية «قصر النفس» وردت بعدة أسماء تختلف جزئياً. فقد سماها الشماخي «إغرم إينان» وعند البغطوري فهي «أغرمينان» ويقال في اللغة الأمازيغية اليوم «تادارت نيمان» بمعنى الدار الشخصية. و«أغرم نيمان» بمعنى «القصر الخاص» أي السكن الفردي. ينظر: ص198؛ سير نفوسة، و39: الباروني: الأزهار، ص234.

390- هي قرية تقع على الضفة الشرقية لوادي الآخرة (وادي متلالة) تقع شرق لالوت وهي التي تسمى اليوم «الزنتان»: معمر: الإباضية في ليبيا، ص212.

T. Lewicki: La Répartition Géographique, p332.

391 - الباروني: الأزهار، ص234؛ معمر: المرجع نفسه، ص110.

392 - هي مدينة مشهورة في الجبل. فالمصادر تصفها بأنها مدينة الأشباخ. تقع على قمة صخرة تطل على وادي يحمل اسمها (وادي لالوت) وهو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين) و(الرجبان) من جهة فساطو والمسمى بوادي الآخرة. أُنجبت هذه المدينة علماء أجلاء منهم: أبو زكريا يحيى بن جرنار اللالوتي وأبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي. ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص171-172؛ الباروني: المرجع نفسه، ص222.

وتمكن العباس أن يخلص سكان الجبل من غاراته. وتبين المصادر أن قتال «خلف» كان شغله الشاغل حتى إنه «لم يخلع الدرع من عنقه. من يوم إلى يوم فوجد صداً الحديد في فيه»³⁹³.

وبعد أن وهنت قوة خلف لم يحرك أتباعه ساكناً ردحا من الزمن. ولا يعني هذا انهم جنحوا إلى السلم. بل جُد أن فلولهم ظلت متشبثة بأفكاره. حيث انضمت إلى حفيده. وظهروا على مسرح الأحداث في ولاية أبي منصور إلياس عامل الجبل في عهد الإمام أبي اليقظان (261-281هـ) (874-894م). ولا تتحدث المصادر عن غارات قام بها بقايا الخلفية ضد أبي منصور. بل تكتفي بالقول بأن هذا الأخير خرج في عهد الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) لطلب حفيد خلف. والذي جُهل اسمه هو الآخر. وقد لجأ هذا الأخير إلى قبائل زواغة. ونزل ببلدة تسمى «ريصو» (ريضة) بجزيرة جربة. فالتفوا حوله وعاهدوه على الوقوف معه ضد نفوسة. إذ كانوا على مذهب أبيه³⁹⁴.

ووصل أبو منصور إلياس التندميرتي إلى مواطن زواغة. ووجد أعداداً هائلة ملتفة حوله. وقبل بداية القتال جرت مفاوضات تدخل أثناءها أحد وجوه «بني يهراسن». يعرف بأبي سلامة. وقيل أبو سلمة في رواية أخرى. وعرض على زواغة مجموعة من الحلول. يراها حلاً ناجعة لحقن الدماء وهي:

1 - أن يترك الزواغيون من أتباع خلف البرية - أي بادية «ريصو» - ويعبروا إلى داخل جزيرة جربة. وبذلك يخرجون من حيز أبي منصور. ويحق لهم الدفاع عن زعيمهم.

2 - أن يكتبوا الإمام أبي حاتم يوسف يطلبون منه أن يولي عليهم والياً منهم. وبذلك يستقلون عن حكم نفوسة.

3 - أن يسلم الزواغيون زعيمهم إلى أبي سلامة اليهراسني. ويذهب به إلى نفوسة. والتعهد لهم بحفظ أمنه وسلامته³⁹⁵.

وفشلت هذه الوساطة عندما اتهم بعض الزواغيين أبا سلامة بأنه يريد الوقيعة بزعيمهم. فأثر التنحي عن الوساطة رغم نداء العقلاء من الزواغيين بضرورة استمرارها. وأصبحت المواجهة هي آخر ما تبقى من الحلول. وانتهت بانتهزام زواغة بعد قتال شديد

393 - الشماخي: السير، ص197.

394 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص146؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص85؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص384.

395 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص147؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص85؛ الشماخي: المصدر السابق، ص255؛ سعد زغلول، المرجع نفسه والجزء ذاته، ص385.

راح ضحيته العديد من الزواغيين الذين لم يتمكنوا من الفرار. بسبب وقوعهم في الحبال الممدودة بين الأشجار لمنع الوحوش من إفسادها³⁹⁶.

والتجأ حفيد خلف إلى الجزيرة. فنزل عند رجل زواغي تسميه المصادر «معقل». من «بني مزانت» (بني تامستاوت). وأسكنه في قصر يقال له «غردانت». وعندما وصل أبو منصور إلى ساحل جربة لجأ إلى طريقة الإغراء حيث أرسل رجلا من «بني يهراسن» إلى معقل يعرض عليه مبلغ مائة دينار مقابل تسليمه. وفتح أبو منصور في خطته حيث تسلمه وسار به إلى الجبل وسجنه. وتذكر المصادر أنه ظل مكروما في سجنه معززا لشرفه. وعلمه. وفقهه. حتى إنه إذا نزلت نازلة. ولم يجدوا لها حكما يرجعون إليه حتى إنه تساءل متعجبا: «يسجنونني ويسألونني». وتنتهي الرواية بأنه عاد إلى مذهب الحق وأصبح الإباضية يسمونه بعد ذلك بـ «الطيب بن الخبيث بن الطيب»³⁹⁷.

وما تقدم يتضح أن الحركة الخلفية لم تكن مجرد خلاف في الآراء بين أتباع المذهب. بل كانت حركة تعبر عن نزعة استقلالية اختارت السلاح وسيلة لتحقيق تلك الرغبة. وانضم إلى هذه الحركة حتى العلماء. ويبدو أن أبا مهاصر. وأبا الحسن الأبدلاني. كانا ميلان إلى خلف لأن أبا مرداس طلب من العباس التوبة إلى الله بقوله: «تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر. إلا لأن شئنا ما وقع منك. وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل». ويمكن أن نستشف من هذا النص بأن هناك خلافا بين أبي مهاصر. والعباس. ربما في السياسة المتبعة من طرف هذا الأخير. خاصة وأن النص يوحي بأن أتباع خلف على حق. وأتباع العباس على باطل. أضف إلى ذلك أن أبا مهاصر هدد بالنداء في الناس بأن يرجعوا إذا أصر العباس على قتال خلف. كما أن أبا مهاصر وأبا الحسن الأبدلاني انسحبا من الجيش. وتبرر المصادر ذلك بحجة أنهما تعبوا من السير. فانتقلا إلى اغرميمان للاستراحة عند عجوز. ولا يعقل أن يتركا ميدان المعركة من أجل زيارة عجوز صالحة! أليس أبو مرداس هو القائل: «لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني»³⁹⁸. وتبرر المصادر كعادتها الانسحاب من المعركة تارة بحجة أن الزاد نفذ. والكراع ضعف. وتارة بأن الموسم موسم حرث. وبذر. وهو التبرير نفسه الذي تورده المصادر في حديثها عن هزيمة أبي الخطاب عبد الأعلى أمام ابن الأشعث سنة 144 هـ عندما أرجعت أسباب هزيمته إلى

396 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص148: الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها. سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء ذاته. ص385-386.

397 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص148-149: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص86: سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء ذاته. ص386-387: معمر: الإباضية في ليبيا. ص20.

398 - الشماخي: السير. ص172.

انسحاب الكثيرين من رجاله لأنها وقعت في وقت الحصاد. ورجاله أغلبهم من المزارعين. وما نستنتجه كذلك أن ميزان القوى كان غير متكافئ. لأنه مر بنا أن أصحاب أبي عبيدة كانوا يرغبون في الصلح مع الاعتراف باستقلال حيز «خلف» عن الجبل. ويتجلى ذلك في الرسالة التي أرسلها قائدهم إلى خلف يقول له فيها: «إذا نزعت يدك من الطاعة. فكن في حيزك. وأكون في حيزي». وإذا كان الخلفية قد رفضوا هذا العرض إلا أننا نلاحظ بأنهم في عهد حفيد زعيمهم تنازلوا عن المطالبة باستقلال حيز طرابلس. وطالبوا فقط باستقلالهم عن نفوسة. وجاء هذا المطلب في اقتراحات أبي سلامة.

وما نلاحظه كذلك أن المصادر الإباضية - وأغلبها وهبية - تشنع على خصومها السياسيين ومخالفهم في الرأي. فنراها تطلق على خلف اسم «الخبيث بن الطيب». وتطلق على حفيده بعد توبته الطيب بن الخبيث. ولذلك فإننا نشاطر سعد زغلول حين شكك في صحة هذه الأسماء. واعتبرها أسماء اصطنعها المؤرخون من الوهبية. لنعت خصومهم ونعتقد أن «خلف» سمي بهذا الاسم لإظهاره الخلاف والشقاق. ولو استمر حفيده في الخلاف لأطلقت عليه اسم «الخبيث بن الخبيث بن الطيب».

ب - النفاثية:

تنتسب هذه الفرقة إلى «فرج بن نصر النفوسي» أحد العلماء النفوسيين. المعاصرين للإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). وقد أخذت اسمها من «نفاث». وهو لقب أطلقه الإمام «أفلح» على «فرج» لأنه «له نفاث ينفث في الأسماع بدعته»³⁹⁹. وقيل أن «نفاث» اسم قرية من قرى الجبل. وهي المعروفة في عصر الباروني بـ «نفاثة» والتي تقطنها قبيلة مالكية المذهب تعرف بالاسم نفسه⁴⁰⁰.

ويرى سعد زغلول أن هذا اللقب هو الآخر لقب جريح لا يختلف عن غيره من الألقاب التي أطلقها الإباضية الوهبية على مخالفهم كالنكارية. والخلفية. وأغلب الظن - حسب رأيه - أن اسم نفاث مشتق من الفعل: نفث ينفث أي ينفث سموم الخلاف والفرقة⁴⁰¹. ونميل إلى الأخذ بهذا الرأي لأن فرج تنسبه المصادر إلى بلدته «ويغو»⁴⁰² وليس إلى نفاثة. ويحتمل أن هذه الأخيرة عرفت بهذا الاسم ربما لانتشار آراء فرج بين سكانها.

399 - الوسياني: السير (مخطوط). ورقة 9.

400 - الباروني: الأزهار. ص252: علي يحي معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية. مطابع سجل العرب. ط1. القاهرة. 1976. ص264.

401 - ينظر: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص347-348.

402 - الشماخي: السير. ص179.

أما تسمية أتباع هذه الفرقة بـ «الكتمانية»⁴⁰³ فلم نجد لها ذكرا أو تعليلا في المصادر.

تذكر المصادر أن فرج سافر رفقة زميله سعد بن أبي يونس وسيم النفوسي إلى تاهرت، للتعلم عند الإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م)⁴⁰⁴. فلما بلغا من العلوم ما شاء الله أرادوا العودة نحو بلادهم فنظرارة⁴⁰⁵. وعندما بلغ الإمام أن عامله عليها أبا يونس وسيم النفوسي قد أدركته الوفاة، أراد أن يعين من يخلفه فاختر الناس ولم يجد إلا ابنه سعد. فكتب له سجلا بالتعيين وطواه وختم عليه بخاتمه. ولم يبين لهما عن وقع عليه الاختيار. وطلب منهما عدم الاطلاع عليه حتى يصل إلى قنطرة. وبما أن فرج بن نصر كان يطمح إلى تولي الولاية والرياسة، لم يلتزم بتلك الوصية واطلع على السجل. وعندما وجد أن «سعدا» هو العامل أضمر في قلبه العداوة⁴⁰⁶.

وعندما وصل «فرج» إلى موطنه أظهر الطعن في الإمام، متهما إياه بأنه أضاع أمور المسلمين. ولما بلغ ذلك الإمام أرسل إليه يستدعيه ليوضح له ما ضيعه من أمور المسلمين. ويبدو أن الرسالة حمل تهديدا ولذلك خشى على حياته فلم يلب الدعوة⁴⁰⁷.

403- المارغني: فرق الإباضية ليست وما زاغت به عن الحق، طبعة حجرية (د.ت)، ص56.

404 - يرى علي يحي معمر أن نفاثا لم يسافر إلى تاهرت للتعليم هناك رغم إجماع المصادر لأنه من خلال ما ورد في رسائل الإمام أفلح يدل على أن فرج لم يدرس عندهم. فقد جاء في رسالته إليه: «لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك على الأصل ولاية». وجاء في رسالة أخرى أرسلها إلى عماله في شأنه قائلا: «لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم. ولم يصحب أهل الورع. ولكنه نشأ وحيدا وأقام متوحشا من العلماء، فتقلب في جوانحه الشيطان». والراجح أنه درس في تاهرت ولما طعن في الأئمة أنكروا ذلك وعتوه بأنه نشأ وحيدا لم يصاحب العلماء ولم يتلق العلم عن الأئمة على الرغم من أن المصادر تثبت سعة علمه وفهمه عندما سافر إلى بغداد وتمكن من الإجابة على مسألة عجز علماء المشرق عن الإجابة عنها. ينظر: الإباضية بين الفرق الإسلامية ص264.

405 - تباينت الآراء في تحديد موقع قنطرة. فـ «ليفيسكي» يرى أنها مدينة تقع قرب قسطنطينية في بلاد الجريد وهي «قنطنار العليا» التي ذكرها الشماخي والتي يحدها خارج مدينة درجين السفلى الجديدة. عندما أشار إلى أحداث وقعت في عهد الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي السوفي (ق 6هـ) أما الدرجيني فيسميها «قنطنار الفوقية». وما يؤكد ذلك أن أبا يعقوب يوسف بن نفاث -أحد شيوخ الإباضية المشهورين- عاش في قنطرة وقتل في درجين عندما خربها المعز بن باديس سنة 440هـ. أما صالح باجبة فيحدد موضع قنطرة قرب نفطة شرقي درجين. ويرى بأن منابع المياه بواحة نفطة والمعروفة باسم «عين قطارة» يبدو أن اسمها محرفا من «قنطرة» في حين يذهب علي يحي معمر إلى اعتبارها «تيجي» وهي قرية تقع شمال «كباو» تحت سفح جبل نفوسة. ينظر: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص264؛ صالح باجبة: الإباضية بالجريد، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1976، ص12؛ T. Lewicki, Tasmiya Suyukh Nafusa, p104.

406 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص137؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص77؛ معمر: المرجع نفسه، ص265؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص350؛ T Lewicki, melanges berberes, ibadites (sur la vieille litterature ibadite en langue berbère), revue des etudes islamique, 1936, cahiers n°2, p270.

407 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص138؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص77.

ونلاحظ من خلال ما مر بنا أن طبيعة الخلاف بين الجبل وبين الإمامة اتخذ منحى آخر فبعد أن كان بعض النفوسيين يطالبون بانفصال واستقلال حيز طرابلس. أصبحوا يطعنون في الأئمة مباشرة. متهمين إياهم بتضييع أمور المسلمين. وهي سابقة خطيرة. وعلى الرغم من أن المصادر الإباضية الوهبية تريد أن ترجع منشأ الخلاف إلى التنافس على ولاية قنطرة. وطموح فرج في تولي هذا المنصب، إلا أننا لا نستبعد أن يكون حلقة أخرى من الصراع بين الجبل والإمامة حول الانفصال. وأن النفوسيين من غير الوهبية أعلنوا صراحة عن عدم رضاهم بحكم الأئمة. وتجدر الإشارة في هذا السياق بأن طعن فرج في الإمام لم يكن الأول من نوعه. فقد رويت المصادر عن الشيخ أبي مسور يصلتن، أحد المعاصرين للإمام عبد الوهاب أنه قال: «عشت حتى لم أجد في الإمام⁴⁰⁸ ما أريد. ولا في نفسي. ولا في الأولاد. ولا في الإخوان. ولا في القبيل. قولوا للمسلمين يدعو (يدعون) علي⁴⁰⁹. وعلى الرغم من أن المصادر تنفي أن يكون القصد من ذلك هو الطعن في الإمام عبد الوهاب. لأن أبا مسور عمر طويلا حتى ضعف جسمه وقل ما بيده وعجز عن فعل الخير كالذي كان يقوم به في ريعان شبابه. فنقم على الكل. إلا أنه يمكننا القول بأن قوله يعبر فعلا عن سخط وعدم رضا. ألم يقل أبو عبدة للإمام عبد الوهاب في أثناء زيارته إلى الجبل عندما ترك هذا الأخير الرعاة برعون ماشيتهم في المزارع: «إنه الرعاة عن المضرة. إن لم تعرف فقد أعلمناك. والإفصل بيننا هذا يعني السيف»⁴¹⁰.

ولا نستبعد أن تكون العصبية القبلية وراء هذه الحركات المناوئة للإمامة. وأن البربر أضحووا يشعرون بفقدان مستقبلهم السياسي تدريجيا مع بقاء سيطرة الفرس على زمام الأمور في الدولة. والبربر الإباضية لا يختلفون عن بقية القبائل الأخرى خاصة وأنا نعرف جيدا أسباب الصراع بين زناتة، وصنهاجة، وكتامة، وغيرها من القبائل. ولا عجب إذن ان يتهم فرج الإمام أفلح بأنه «يزيد في الخلق». ويلبس الطرطور. ويخرج إلى الصيد. ويصلي بالأشبر»⁴¹¹. ويعني هذا انه كان ضد مظاهر الترف والبذخ التي بدأت تتفشى في قصر الإمامة.

واتخذ الخلاف منحى آخر. حيث تحول إلى خلاف ذو طبيعة فقهية، مذهبية. واجتهد

408 - نقل الدرجيني كذلك هذا القول مع تغيير كلمة (الإمام) بـ (الأيام) وإضافة عبارة أرى مكملة للنص حيث قال: «عشت حتى لم أجد في الأيام ما أريده ولا في نفسي ولا في الإخوان ولا في الأولاد ولا في القبيلة فأدعو الله أن يريحني ما أنا فيه». ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص315.

409 - الوسياني: السير، و9.

410 - الشماخي: السير، ص189.

411 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص137-138.

فرج في بعض المسائل التي أنكرها عليه أهل الدعوة من الوهبية. ويمكن إجمالها في ما يلي:

1 - أن خطبة الجمعة بدعة وضلال، وأن الله هو الدهر الدائم.

2 - أنكر استعمال الإمام للعمال والسعاية لجباية الحقوق الشرعية. ومطلب بيت مال المسلمين من الرعايا.

3 - أن ابن الأخ الشقيق، أحق بالميراث من الأخ للأب⁴¹².

وما يمكن أن نستشفه من هذه المسائل ان فرجا كان يدري رأي الدهريين في قدم العالم، وهو الرأي الذي خالف فيه الإباضية الوهبية. ونحن نعرف أن مؤلفاتهم احتوت فصولا للرد على الدهريين⁴¹³. أما المسألة الثانية فيبدو أنها نسبت إليه على أساس أنه عندما لم يفز بولاية قنطرة، أنكر على الإمام توليته العمال.

وعلى الرغم من هذه المسائل التي ابتدعها في الدين كما يقول الوهبية، إلا أنهم يعترفون بغزارة علمه، وكانت له مجالس علمية وحلقات في الجبل يقول الباروني: «كان (أي فرج) ذا فهم عجيب، وذكاء غريب، واطلاع، وإدراك زائدين، أخذ العلوم من منبعها، والتقط غرائب الفنون من معدنها»⁴¹⁴.

وحسب المصادر فإن «سعدا» ظل يكرر له النصائح خوفا من انتشار أفكاره بين الناس، فكلما اجتمع به وبخه وهدده، وفي بعض الأحيان يلاينه حتى إنه اشترى دارا بجنب داره، وشرع في توسعتها فكان «فرج» ملازما له يقدم له المساعدة، فهو بناء ماهر له دراية بطرق البناء، وإذا رأى سعد الناس قد اجتمعوا قال له: «متى تترك كفرك وضلالك يا نفاث؟» خوفا من أن يتوهموا بأنه راض عنه وأنه في ولايته، ويرد عليه منزلها نفسه بقوله: «معاذ الله أن أكفر أو أضل يا شيخ». وقد بين سعد جلسائه أن قوله ذلك ما هو إلا ليعلم الناس أنه غير راض عن سيرته، فلا يأخذوا بأقواله⁴¹⁵.

وقد تصدى العلماء لدعوته خاصة عندما ألف كتابا يشرح فيه آراءه، ومن تصدى

412 - المارغني: فرق الإباضية الست ومازغت به عن الحق، ص56-57؛ الباروني: الأزهار، ص251-252؛ علي يحي معمر: الإباضية دراسة مركزية في أصولهم وتاريخهم، مطبعة التضامن، ط2، القاهرة، 1987، ص67؛ المؤلف نفسه: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص267؛ صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص63؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص472.

413 - عمار طالبي: آراء الخوارج، دارالعلم للطباعة، الإسكندرية، 1971، ج1، ص244 وما بعدها.

414 - الباروني: الأزهار، ص252.

415 - البغطوري: سير نفوسة، ص28؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص139؛ الباروني: المرجع نفسه، ص254-255؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص265.

له ابو مهاصر مرداس، ومهدي النفوسي الذي وضع كتابا للرد على تعاليمه بلغة البربر حتى يسهل على الناس فهمها⁴¹⁶.

ولما لم تأت بنتيجة، ولم توقف الخلاف، أرسل العمال يستشيرون الإمام في أمره، مما يدل على أن آراءه تجاوزت قنطرة وانتشرت في مختلف مواطن الإباضية. ذلك أن الرد جاء موجها إلى عامله على نفاوة «ميال بن يوسف» ويعلل الباروني ذلك أنه لشدة خوف العمال من الخلاف والشقاق كاتبوا كلهم الإمام، وجاءت الرسالة موجهاة إلى جميع عماله يحثهم فيها على عدم مجالسته، وهجرانه. حتى يعود إلى سنة المسلمين، ثم رد عليه وأبطل مسائله بحجج وبراهين⁴¹⁷. وظل «نفاث» في غيه - كما تقول المصادر الإباضية - فكثرت الكتابات في حقه إلى الإمام، فجاءت رسالة ثانية تطلب منهم مرة أخرى هجرانه، والبراءة منه. ويبدو من نص الرسالة أن كاتبها طلب من الإمام أن يستدعيه إلى تاهرت لأن أفلح قال في رده: «ما أحوجكم إلى مجيئه وأشخاصه، وإن كنتم تريدون ان تعلموا ما نحن عليه فنحن على ما مضى عليه سلفنا ومقرون لما حكيموه عنه»⁴¹⁸.

وطلب الإمام من الرعية في الجبل الامتثال لأوامره، والرضا عن العمال الذين عينتهم الدولة، ومن عاب أحدا منهم او أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك إليه، وهو الذي يغيره إن كان يستحق ذلك، وليس للرعية الوثوب على السلطان⁴¹⁹. كما اشتملت الرسالة على أجوبة لمسائل وردت في كتاب نفوسة للإمام، وهذه الأجوبة ربما هي التي أصبحت تعرف فيما بعد بـ «مسائل الإمام أفلح» على غرار مسائل والده عبد الوهاب، ولما بلغ خبر المكاتبات إلى «نفاث» وإعلان البراءة منه حتى يتوب، أرسل إلى الإمام كتابا يلتمس منه معرفة أسباب البراءة منه وإخراجه من ولاية «أهل الدعوة». فجاءه الرد مشحونا بالغضب حتى إن أفلح لم يفتح رسالته بالبسملة والسلام، يقول له فيها: «كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك ما أكره... فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط ذلك... ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا، فأنت محقوق بالبراءة، ومقص من جماعتنا... وإن لم تكن كذلك، فظاهر الانتفاء من ذلك... وإني غير كاتب إليك بعد هذا إلا إن انتهى إلينا منك ما نحب»⁴²⁰.

416 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص314.

417 - ينظر: المرجع السابق، ص256.

418 - المرجع نفسه، ص259.

419 - المرجع نفسه، ص260.

420 - نفسه، ص261-262؛ عثرنا على نسخة مخطوطة لمسائل للإمام عبد الوهاب وأجوبة للإمام أفلح ونفاث

إن هذه الرسالة توحى لنا أن «نفاث» أنكر ما نسب إليه من مسائل، وأن كل ما قيل فيه لا يعدو أن يكون باطلاً. وبهتاناً. وبالتالي لا يحق للإمام إعلان البراءة منه خاصة وأنه اعتمد في ذلك على ما نقله إليه عماله، وتبين الرسالة كذلك أن الإمام أفلح لم يكن متأكداً من أن كل ما وصله عنه صحيح. بدليل أنه قال له: «وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك».

وبعد فشلت «نفاث» في البقاء في ولاية أهل الدعوة. جمع ما عنده من مال، وفر بنفسه إلى أن تجاوز حدود الإمامة في سرت. وواصل رحلته إلى بغداد. وأقام فيها مدة طويلة في ضيافة صديق بغدادى نعتقد أنه من الإباضية، ولما علم بنزول نازلة على الخليفة وعجز العلماء على حلها تقدم إليه وأجابه، إجابة مقنعة فأعجب بذكائه وفطنته، وقربه إليه، وصار الخليفة يسأله عن معضلات المسائل وهو يجيب دون عناء، واشتهر فأصبح مجلسه يحفل بالعلماء والأدباء، والأمراء. وعندما أراد السلطان أن يكافئه طلب منه «نفاث» السماح له بنسخ الديوان - أي ديوان جابر بن زيد - الموجود في مكتبته فلبى طلبه، وحدد له فترة النسخ بيوم واحد، لأن وزراءه كانوا يعارضون ذلك فرضي بالشرط، واستأجر لهذا العمل الكتاب الذين مكنوه من نسخ أجزاء، ولم يبق له إلا جزء واحد فقط، سمح له بالاطلاع عليه فحفظه بعد قراءة واحدة، وأعاد سرده على مسمع الخليفة، ووزرائه⁴²¹.

وتذكر المصادر بأنهم دبوا له خطة لكي يأخذوا منه الديوان. حيث اتفقوا على طرح أسئلة عليه قبل سفره، فإن عجز أخذه منه، وعندما فشلوا في ذلك قرروا أن يبعثوا وراءه من يأخذه منه عنوة، ويبدو أن «نفاثاً» علم ما في صدورهم فغير الطريق، واجه إلى مكة ومنها إلى طرابلس. وعندما وصلها خشي - كما تقول المصادر - أن ينتفع من الديوان «أهل الدعوة» فحضر له في الأرض فدفنه، ولم يلبث أن تاب ورجع عن مسائله التي خالف بها أهل الدعوة، ولم يعد من الناس من يردد آراء «نفاث» إلا القليل، بعضهم في الجبل، والبعض الآخر في مطماطة⁴²².

ويذكر ليفيسكي بأن آراءه انتشرت في «زيزو» قرب جزيرة جربة، وفي نواحي غمراسن،

بن نصر بالمكتبة البارونية بجزيرة جربة بتونس، ولكنها وللأسف رديئة جداً بحيث لم يتمكن من معرفة مضامينها.

421 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص139-140؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص80-81؛ الباروني: المرجع نفسه، ص264-266؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص348-349.

422 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص42؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص82؛ الباروني: المرجع نفسه، ص266-267.

وفي غريان بجبل نفوسة. وظلت أفكاره موجودة إلى زمن أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي والذي تصفه المصادر ضمن الطبقة العاشرة (450-500هـ) واستمرت إلى غاية القرن الثامن الهجري (14م)⁴²³.

وهكذا ينتهي هذا الخلاف دون اقتتال، ولعل سلميته هي التي جعلت ابن الصغير لا يتعرض له، واصفاً عهد أفلح بقوله: «لم يكن الشرارة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أثماره»⁴²⁴. وعلى الرغم من أن المصادر الإباضية تذكر أن هذا الخلاف المذهبي لم يصل إلى المشرق لأخذ الفتوى كما جرت العادة، إلا أننا نشك في ذلك خاصة وأن الخلاف هذه المرة قد مس مسائل دينية بحتة. وبما أن مصادر الإباضية الوهبية هي الوحيدة التي وصلتنا فإنه تعذر علينا إيجاد تفسير للعديد من الإشكاليات في هذا البحث. أضف إلى ذلك أن المصادر السنية لم تتناول إلا الجانب العسكري، وبالتالي فإننا لم نتمكن من معرفة أي سلطان تقصده المصادر؟ لأن نفاثاً كان معاصراً للخليفة المأمون (198-218هـ)، والمعتمد (218-221هـ) (833-842م)، والواثق (227-232هـ) (842-847م)، اللهم إلا إشارة واحدة ذكرها السيوطي عن استقبال الخليفة المأمون لرجل من الخوارج، لا يذكر اسمه أو بلاده⁴²⁵.

وإذا كانت المصادر التي اعتمدها تريد أن تحط من مكانة فرج، حين ذكرت بان السلطان أو الخليفة أعجب بذكائه «مع سخافته ونسبه وقلة أدبه»⁴²⁶ إلا أنها في الوقت نفسه تشيد - ربما عن غير قصد - بسعة علمه، واشتهاره بين علماء بغداد، أما قولها بأنه نسخ ديوان جابر وأخفاه حتى لا يستفيد منه الناس فهذا أمر غير مقبول من وجهين: أولهما أن الرجل بعد عودته تراجع عن آرائه، فلماذا لم يكشف عنه؟ وفيما يخص التوبة نرى أنه من المحتمل جداً أنه إبان إقامته في المشرق خاصة في مكة، التقى بعلماء المذهب هناك، وبما أنهم كانوا على علم بخلافه أقنعوه بالتراجع فأعلن التوبة، ثم عاد إلى بلاده، ولذلك لم يرد ذكره في الرسالة التي بعث بها أبو عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني إلى

423 - T. Lewicki, La Répartition Géographique, p311. / Les Subdivisions De L>ibadiyya, p79. / Melanges berberes, p271.

424 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص57.

425 - ذكر السيوطي أن رجلاً من الخوارج دخل على المأمون فقال له المأمون: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في كتاب الله قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». قال ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم، قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأئمة، قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فإرضهم في التأويل، قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ينظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دون مكان الطبع (د.ت)، ص319-320.

426 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص140.

أهل المغرب في حين أنشأت إلى خلف وأتباعه⁴²⁷. وثانيهما أن ديوان جابر بن زيد يعد من أهم مصادر الحديث عند الإباضية على الإطلاق مما نرجح أن يكون وصوله إلى بلاد المغرب قد تم في وقت مبكر. ربما ضمن قافلة الكتب التي أرسلها الإمام عبد الوهاب بل ربما قد نقله حملة العلم الخمسة معهم بعد عودتهم من البصرة.

الفصل الثاني

نفوسة دورها ومكانتها في الدولة الرستمية

- 1 - نفوسة وواصلية تاهرت.
- 2 - نفوسة وفتنة محمد بن عرفة.
- 3 - نفوسة وفتنة محمد بن رياح ومحمد بن حماد.
- 4 - نفوسة وتعيين الأئمة.
- 5 - نفوسة وتولي المناصب.



427 - ينظر: ابن سلام، الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص161-166.

1 - نفوسة وواصلية تاهرت:

يتفق الإباضية والمعتزلة في العديد من المسائل الكلامية التي اختلف حولها عامة المسلمين مثل: القول بالوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلق القرآن، وتأويل كل تشبيه ظاهر تأويلاً مجازياً، ويختلفون في مسألة القدر، وحرية الإنسان في أفعاله، وفي المنزلة بين المنزلتين، وفي التحكيم وغيرها من المسائل.

وبما أنهم كانوا يلتقون في العديد من المسائل ذكرت المصادر أنه قد كان يقيم في أحواز تاهرت ما يقرب من ثلاثين ألف واصلية في خيام⁴²⁸. ولا يعرف على درجة الدقة تاريخ قدوم دعاة هذه الفرقة إلى بلاد المغرب. ولكن الشيء المؤكد أن ذلك تم في زمن واصل بن عطاء (ت 131هـ/748م). يقول القاضي عبد الجبار: «لحق بعض أولاده (أي أولاد بشير الرحال) وأصحابه بالمغرب فغلبوا على مدن منها، وأظهروا الحق فيها، وكان واصل من قبل وجه عبد الله بن الحارث ومعه كتبه، ثم غلبت المعتزلة على تلك المدن، ويسمون أنفسهم بالواصلية»⁴²⁹.

وبفضل هؤلاء انتشرت أفكار واصل بن عطاء شمال تاهرت، وفي جنوبها في موقع يسمى «تيلغمت»⁴³⁰. وفي بعض المناطق الصحراوية كمدينة العطف في وادي ميزاب. فالمصادر تذكر بأن أهلها ليسوا إباضية، بل كانوا معتزلة ينتقلون إلى تاهرت لمحاربة الإباضية. وقد تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر أن يردهم بالوعظ والتعليم إلى مذهب الإباضية، بعد انقراض الإمامة الرستمية⁴³¹. ومن أشهر علمائهم في المنطقة: سليمان بن عبد الجبار المدفون بقرية العطف في وادي ميزاب⁴³².

كما انتشر المذهب المعتزلي في «البيضاء» وهي كورة كبيرة لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها. يقال إن فيها مائة ألف واصلية يحملون السلاح⁴³³. وانتشر كذلك في شمال المغرب الأقصى في «وليلي» التي تبعد مسير يوم واحد عن فاس، وكون أتباعه جمعاً

428 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص8؛ البكري: المغرب، ص67؛ الحبري: الدولة الرستمية، ص119؛ جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص103.
429 - بنظر: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1986، ص227.

430 - لا تحدد المصادر الجغرافية موقع هذا الموضع ويرى بحاز ومحمد ناصر أنها ربما القرية المسماة «تيلغمت» الواقعة على الطريق بين مدينة الأغواط ومدينة غرداية. بنظر: أخبار الأئمة الرستميين، هامش ص108.
431 - أطفيش: رسالة مختصرة في تاريخ وادي ميزاب، و11؛ معمر: الإباضية في الجزائر، ص409؛ دبون: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص480-481.

432 - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، المطبعة العربية غرداية (الجزائر)، 1992، ص16.

433 - أبو القاسم البلخي: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص109.

كبيراً تزعمه اسحق بن محمد بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي. فإلى هذه المدينة التجأ إدريس بن عبد الله في ربيع سنة 172هـ (787م). ولقي كرم الضيافة حيث استضافه اسحق. وأنزله في داره. وتولى هو شخصياً خدمته. والقيام بشؤونه عدة أشهر. ثم جمع أخوته وأعيان قبيلة أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من النبي. فرحبوا به وبايعوه «بأوليلي» في يوم الجمعة 14 من شهر رمضان سنة 172هـ (787م)⁴³⁴.

ونعتقد أن للأدرسة يد في تحريك واصلية تاهرت. والدليل جده جلياً عندما اتجه إدريس الأكبر بقواته إلى تلمسان سنة 173هـ (789م) وهي حينئذ قاعدة المغرب الأوسط. تقطنها قبائل مغراوة. وبني يفرن. واستطاع إخضاع أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي. الذي طلب من إدريس الأمان. وقبل الاعتراف بإمامته فبايعه. وبايعته قبائل البربر⁴³⁵.

وقد حاول أمراء تلمسان ضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الأدرسة التابعين لها. فقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «لم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت. وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدرسة. لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة. فامتنعوا عليهم سائر أيامهم إلى أن كان استيلاء أبي عبد الله الشيعي على إفريقية والمغرب سنة ست وتسعين»⁴³⁶.

ويذكر الباروني والحريري أن اتصالات ومكاتبات تمت بين واصلية تاهرت وبين إسحق الأوربي. وكان هذا الأخير يهدف إلى إثارته على أئمتهم الرستميين⁴³⁷. ويضيف ابن تاويت سبباً آخر لخروج الواصلية أيام عبد الوهاب. يتمثل في غضبهم بمقتل يزيد بن فندين اليفرنى زعيم النكارية. وقبيلة يفرن كما هو معروف فرع من زناتة. التي ينتمي إليها أغلب واصلية بلاد المغرب. ويؤكد ذلك انضمام فلول النكار بعد مقتل زعيمهم لهؤلاء الواصلية. وخاصة الرابضين منهم في شمال تاهرت. وقد انضمت إلى حركة بن فندين الواصلية الذين رأوا كما رأى الإباضية. أن عمل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن

434 - أبو عبد الله التنسي: تاريخ دولة الأدرسة من كتاب نظم الدرر والعقيان. تحقيق عبد الحميد حاجيات. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984. ص34-35. البكري: المغرب. ص118: مجهول: كتاب الاستبصار. ص194: الحريري: الدولة الرستمية. ص119: محمد الطالب: دولة الأغالبة. ص402: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص383: إسماعيل العربي: دولة الأدرسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1983. ص63-64.

435 - التنسي: المصدر نفسه. ص35: السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه. ص384: رابح بونار: المغرب العربي. ص38-39.

436 - ينظر: العبر. مج6. ص248.

437 - ينظر: الأزهار. ص169: الدولة الرستمية. ص120-121.

رستم خروج صارخ على مبدئهم في الإمامة. ولذلك اشتعلت الحرب بين يزيد وبين عبد الوهاب⁴³⁸. وهو الأمر الذي أشار إليه أبو زكريا عندما عرّف الواصلية بقوله: «قوم من البربر أكثرهم قبائل زناتة»⁴³⁹.

ونميل إلى الأخذ بهذا الرأي. ذلك أن الخصومة بين الواصلية والرستميين قد اتخذت فعلاً طابع الصراع القبلي أكثر من الصراع الطائفي. مثل ما حدث مع النكار. هذه الخصومة التي لم يتحدث عنها ابن الصغير. فبعد مقتل يزيد بن فندين اتحدت بطون بني يفرن للانتقام من مقتله. هذه البطون التي كانت تستوطن المنطقة الواقعة غرب مدينة «منداس»⁴⁴⁰. إحدى مدن كورة تاهرت. كما كانت تاهرت نفسها مركزاً لتجمع بني يفرن. وكانوا يشكلون قوة لها ثقلها حتى إنهم تدخلوا في بعض الأحيان في اختيار الأئمة. وناقسوهم حتى في الجلوس على كرسي الحكم. يقول ابن الصغير: «كانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال. واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة. حتى خاف أفلاح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه»⁴⁴¹.

ومن خلال النصوص التاريخية نلاحظ أن جدلاً وناقشاً حادين قد حدثا في الدولة بين مختلف الفرق والطوائف. وقد أقحم زعماء الواصلية أنفسهم في هذا النقاش. خاصة في المسائل التي كانت موضع خلاف بين أهل المذهب. ويورد لنا ابن الصغير. والبرادي. مثلاً عن ذلك عندما ذكرا أن عبد الله اللمطي كان يناظر المعتزلة (الواصلية) وسائر الفرق في المغرب في عهد أبي اليقظان (261-281هـ) (874-894م)⁴⁴².

أما الواصلية في عهد عبد الوهاب فقد ترأسها زعيم أهملت المصادر ذكر اسمه. وإنما ركزت فقط على ابنه الذي تصفه بأنه كان فارساً مغواراً صعب المنال. وأنه كان فيهم رجلاً مناظراً يجيد فنون الكلام. وكثيراً ما ناظر الإمام⁴⁴³.

438 - محمد بن تاويت: دولة الرستميين. ص114.

439 - ينظر: كتاب السيرة. ص104.

440 - تقع اليوم في الطريق الرابط بين زمورة ووادي السلام في اتجاه تيهرت ولا تبعد عن هذه الأخيرة إلا بـ 60 كلم.

441 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص63.

442 - اجتمع جمع من المعتزلة والإباضية بنهر مينة للمناظرة. وكان كثير من هواره من حضر يتسمى عبد الله بكسر الدال. ونادى رجل من المعتزلة عبد الله اللمطي وقال له: هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه. فقال: لا فقال: هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه فقال إذا شئت فقال: خرجت منها يا ابن اللمطي. ينظر: المصدر نفسه. ص93-94-95: الجواهر المنتقاة. ص179-180.

443 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص105: الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص57.

وتذكر المصادر أن الإمام عبد الوهاب استنجد بعلماء نفوسة لهذا الغرض. ويبدو أن الإمامة كانت في حاجة ماسة إلى جيش مقاتل للقضاء على شغب الواسلية في أحواز تاهرت. ففي هذه الأخيرة كان يعيش العديد من العلماء البارعين في علم الكلام أمثال عبد الله اللمطي، وأبي عبيدة الأعرج الذي كان «في غاية العلم، والعمل، والورع، والأدب»⁴⁴⁴. وكانوا كلهم «مقرون له بالفضل، مسلمون له بالورع، إذا اختلفوا في أمر من الفقه، أو من الكلام صدروا عن رأيه»⁴⁴⁵. أضف إلى ذلك أن الإمام عبد الوهاب نفسه كان عالماً. فالبيت الرستمي هو بيت للعلم في جميع فنونه من الأصول، والفقه، والتفاسير، وفنون الرد عن المخالفين، وعلم النحو، واللغة، والإعراب، وعلم النجوم⁴⁴⁶. ولعبد الوهاب كتاب معروف بـ «مسائل الجبل». لأن نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة ما سألت عنه. وكان هذا الكتاب مشهوراً عند الإباضية⁴⁴⁷ كما كان ابنه أفلح من «أوتي من العلم، والجمال، والعقل، والشجاعة كثير»⁴⁴⁸.

ومهما يكن من أمر فإن عبد الوهاب كان في حاجة ماسة إلى قوة نفوسة، أليس هو القائل: «إن هذا الدين قام بسيف نفوسة، وأموال مزاتة». وكان قد أذّر وأعذر الواسلية عدة مرات. ولما تمادوا في الخلاف استنجد في آخر المطاف بقبائل نفوسة، طالباً منهم أن يرسلوا إليه جيشاً يتألف من أربع مائة رجل، مائة يكونون من خيرة فرسانهم، ومائة من المتضلعين في علم التفسير، ومائة من علماء الكلام المطلعين على نزاعات الفرق، والعارفين بالرد على المخالفين، ومائة من المتبحرين في مسائل الحلال والحرام⁴⁴⁹.

ولما بلغ كتابه إلى أبي الحسن أيوب بن العباس عامله على الجبل، جمع أصحاب الرأي وعرض عليهم مطلب الإمام، وبعد نقاش وتبادل لوجهات النظر اتفقوا أن يرسلوا أربعة أشخاص لأن إرسال جيش يكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً. وقد وقع اختيار النفوسيين على:

1 - مهدي الويغوي.

2 - أيوب بن العباس.

٤٤٤ - الشماخي: السير، ص ٢٢٣؛ الباروني: الأزهار، ص ١١٢.

445 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 95.

446 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 102.

447 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 45-46.

448 - البغطوري: سير نفوسة، و 47.

449 - البغطوري: المصدر نفسه، و 39؛ الشماخي: السير، ص 154؛ الباروني: الأزهار، ص 118؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 83.

3 - محمد بن يانس.

4 - قيل اسمه محمد أبو محمد وقيل أبي الحسن الأبدلاني⁴⁵⁰.

يعد هؤلاء من خيرة رجال الجبل. وحسب المصادر الإباضية فإن كل واحد منهم يقوم مقام مائة من طلبهم الإمام. فكان كل واحد يختص بعلم من العلوم، مهدي بعلم الكلام، وأبو الحسن بالفقه، ومحمد بن يانس بالتفسير. أما أيوب بن العباس فهو الفارس الشجاع، والبطل المشهور المكلف بمبارزة الفتى الواسلي. ويبدو أن اختيار هؤلاء للسفر إلى تاهرت وجدة إمامهم قد تم في غيابهم. ذلك أن أيوب - عامل الجبل - أرسل إليهم يخبرهم باتفاق إخوانهم على إرسالهم إلى المغرب تلبية للنداء، فأجابوا بالسمع والطاعة. وسافر الوفد قاطعاً هذه المسافة الطويلة، يخدمه محمد بن يانس حيث كلما نزلوا منزلاً هياً لهم الطعام، والمصلى، وتكفل بخيلهم⁴⁵¹.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: لماذا لم تلبية نفوسة طلب الإمام المتمثل في إرسال جيش لمحاربة الواسلية؟ وهل كان الإمام فعلاً في حاجة إلى هذا العدد الضئيل لكي يرحح ميزان القوة لصالحه؟ ألا يمكن أن يكون الإمام قد طلب فعلاً أربعة رجال فقط، ولكنه وفي إطار الحرب النفسية أشاع في تاهرت بأن نفوسة عزمت على إرسال جيش يضم أشجع الفرسان للحط من معنويات الواسلية؟ وهل كانت الظروف فعلاً تسمح بانتقال جيش من الجبل إلى تاهرت؟ خاصة وأن الأغلبية ظلوا يتربصون بهم، ومن المؤكد بأنهم لم يسمحوا لهم بالمرور بأراضيهم.

حاول بعض المؤرخين المحدثين إيجاد تفسير لذلك، فعلي يحي معمر علل عدم إنفاذ نفوسة الجيش إلى أن ذلك سيكلفهم، وسيكلف الإمامة مؤونة وتعباً⁴⁵² بينما لا يستبعد محمد بن عميرة أن يكون عامل الجبل قد لبى الطلب فعلاً وأرسل جيشاً يقوده هو أو أحد العلماء الذين ذكرت المصادر أسماؤهم، ولكن شهرة هؤلاء غطت أخبار بقية الجيش التي اختفت بالتدريج ولم تنقلها المصادر⁴⁵³.

450 - بسميه البغطوري (مامد بن يانس) بنظر: المصدر نفسه والورقة ذاتها.

- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 58؛ البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص 155.

451 - البغطوري: المصدر نفسه، و 46؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 57؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 105؛ الباروني: المرجع السابق، ص 118-119.

452 - بنظر: الإباضية في ليبيا، ص 83.

453 - محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 129-130.

وأمام هذه الاختلافات فإننا نستبعد أن يكون النفوسيون قد جهزوا جيشا. وأنفذوه إلى تاهرت لأن ظروف الجبل السياسية كانت لا تسمح بذلك. إذ كانوا منشغلين بحركة خلف وأتباعه. ومن غير المنطق أن يهيموا لإنقاذ الإمامة وجبلهم يمر بأخطر حركة استقلالية. ولا يستبعد أن يكون طلب الإمامة قوبل بالرفض لأنه لما وصل الوفد إلى تاهرت اتهمه بالتقصير في إمداده عندما علم بأنهم أربعة فقط. وهو قد طلب أربع مائة وقيل أربعة آلاف. أضف إلى ذلك أن ابن الصغير لم يرد أي إشارة عن ذلك الوفد. ولا عن المناظرة. ولا عن الحرب. وكل ما ذكره كان حول النكار وثورتهم. وثورة الأوس⁴⁵⁴.

ومهما يكن من أمر فإن عبد الوهاب كان ينتظر جيشا كبيرا. حتى إنه وعد من يبشره بوصولهم من عبيده بالحرية. وظل العبيد يخرجون كل يوم يترقب وصوله. حتى قيل في المثل التيهرتي «فاز بها الأعرج»⁴⁵⁵.

ولما وصل الوفد أمر بإنزاله في دار الضيافة ليستريح من عناء السفر. وبعد أن أخذ قسطا من الراحة اجتمع بهم فأخبروه بوظائفهم وبهمة كل واحد منهم. ووعدهم بالوفاء فاكتسبوا ثقة الإمام. ثم عرض على الإمام ما جرى بينه وبين الفتى الواصلي من محاورات ليكون على بينة وبصيرة بمناظرته. وكان مهدي «كلما رأى خطأ في كلام المعتزلي قال: هنا حاد عن جادة الصواب. وزاغ عن الحجة. وسفسط. وكان من الصواب أن تجيبه يا أمير المؤمنين بكذا وكذا»⁴⁵⁶. وبذلك أطلع مهدي الإمام على جميع الأخطاء التي وقع فيها المعتزلي ولم ينتبه إليها. فعرف مهدي أسلوب المعتزلي المنتحل للمناظرة. وكيف كان يحيد عن الجواب. وهنا أيقن الإمام بأن مهديا سينال من المعتزلي وتأكد بأنه وأصحابه يقومون مقام العسكر⁴⁵⁷.

أما أيوب بن العباس فقد أذهل سكان تاهرت بقوته. أليس هو القائل: «لا أعلم من فاس إلى مصر فارسا ببارزني»⁴⁵⁸. والدليل على قوته أنه عندما أراد اختيار فرس من خيل الإمامة لم تعجبه كلها لأنه كان يجذبها إليه حتى تكاد أن تقع محاولا اختبار قوته. حتى انتهى في آخر المطاف إلى علاج فرسه الذي تعب من مشاق السفر فأصابه الحفا⁴⁵⁹.

454- ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص 47-56.

455 - البغطوري: سير نفوسة. و 46.

456 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 108: الشماخي: السير. ص 155: الباروني: الأزهار. ص 121.

457 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 59.

458 - الشماخي: المصدر السابق. ص 165: معمر: الإباضية في ليبيا. ص 81.

459 - الشماخي: المصدر نفسه. ص 15: الباروني: الأزهار. ص 12: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 327-328.

ونادى الإمام في القبائل للاجتماع وفتح باب المناظرة وضرب موعدا مع الواصلية بعد ثلاثة أيام. ويذكر أن النفوس من الفريقين المتخاصمين كانت مشتاقة لرؤية النفوسيين. فمجيئهم كان له صدى أطبق الأقطار كما يقول الباروني⁴⁶⁰. وامتلات قلوب الواصلية خوفا وساءت ظنونهم حتى إنهم باتوا في غم شديد⁴⁶¹.

وخلال الثلاثة أيام التي احتاج إليها رجال نفوسة للراحة كان مهدي يتغيب عن رفاقه يوميا لمناظرة العلماء من المخالفين. فقد تمكن من الانتصار على تسعين⁴⁶² وقيل سبعين⁴⁶³ عالما خلال هذه المدة. فهو القائل: «لا أخاف بإذن الله مخالفا أن يدحض حجتي. إلا إن داهنت في دين الله»⁴⁶⁴.

وانتهت المهلة وخرج الإمام عبد الوهاب بعساكره ومعه رجال نفوسة وتم اللقاء فدعا الإمام المعتزلة مرة أخرى إلى الطاعة فأبوا وطلبوا المناظرة فنادى مناديه بالحضور إلى المناظرة والمبارزة. «فهرعت من الفريقين أمة كالجراد»⁴⁶⁵. واصطف الطرفان. وخرج الفتى الواصلي المناظر. وخرج مهدي بعد أن امتنع محمد بن يانس. وللدلالة على قدرة مهدي في الرد والمناظرة تذكر المصادر الإباضية بأنه أذهب مناظرته حتى إنه عرف بأنه مغلوب في النهاية ولذلك قال له: «إني إذا ناظرتك وغلبتني أريد أن تستر علي. وإن غلبتك سترت عليك. وليس فينا أحد يدري لمن الزيادة على صاحبه»⁴⁶⁶.

وشعر مهدي أن طلبه هذا ما هو إلا مكيدة فأخبر أصحابه بأنه عاهده على الستر. ولكن إذا نزع طاقيته ووضعها تحت ركبته فليعلموا بأنه فاز عليه وانتصر. وكان كل واحد من المتناظرين قد اصطحب معه خواصه من العلماء. ولا ندري هل كان خواص مهدي من الجبل. أم كانوا من تاهرت؟ فالمصادر تذكر أنه لما بدأ الجدل الفقهي كان الإمام عبد الوهاب يستمع إلى النقاش الدائر. مما يرجح أن حاشية الإمام وبعض علماء تاهرت كانوا ضمن الحضور. وتضيف المصادر أن النقاش بدأ بسيطا في المسائل الخلافية. ولكن عندما طال ولم يفلح أحد على صاحبه دخلا في فنون العلم صعب على الحاضرين فهمه. وما لبث أن عجز المعتزلي واستسلم. فنزع مهدي عمامته كما وعد أصحابه من قبل فكبروا تكبيرة رجل واحد. حينئذ بهت الواصلي لأن مهديا غدر به. وخالف العهد. وبرز

460- ينظر: المرجع نفسه. ص 121.

461 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 60.

462 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 109.

463 - الدرجيني: المصدر السابق. ج 1. ص 60.

464 - الباروني: الأزهار. ص 122.

465- المرجع نفسه والصفحة ذاته.

466- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 110.

نفوسة في خلافاتها الداخلية وفي مقاومة الاعتداءات الخارجية.

2 - نفوسة وفتنة محمد بن عرفة:

لسنا هنا بصدد التأريخ للدولة الرستمية، فهناك دراسات كثيرة ولكن سنركز الحديث فقط عن دور نفوسة وموقفها إزاء هذه الفتنة. تذكر المصادر أنه لما تصاهر محمد بن عرفة مع الإمام أبي بكر بن أفلاح (258-261هـ) (871-874م) أصبح له نفوذ كبير. حتى أضحت الإمارة لأبي بكر بالاسم أما الإمام الحقيقي فهو محمد بن عرفة⁴⁷². وكانت لهذا الأخير شيعة تمشي معه حتى إن «الرستمية» كرهت ذلك واعتبرته خطرا يهدد مستقبلها السياسي. ورغم ذلك فقد ظلت الأحقاد كامنة في القلوب إلى أن عاد أبو اليقظان من المشرق وتولى تسيير شؤون البلد. لأن أخاه تفرغ إلى الملذات والشهوات فمال الناس إلى أبي اليقظان. ولما رأى أبو بكر ما بلغه ابن عرفة من القوة نصحه ناصح بان يتخلص منه خارج تاهرت. بعد عودته إلى موضع منتزههما وهو موضع يعرف بـ «جنان الأمير» فأقاموا يومهما هناك. ولما حانت صلاة العشاء دعاه الإمام إلى الصلاة. وبينما هما قائمان إذ أشار إلى غلامه فقتله ثم رميت جثته في مكان وعمر يسمى «الشفة الحمراء» وعاد إلى المدينة⁴⁷³.

ولما علم إخوانه وشيعته بمقتله أمر محمود بن الوليد - وهو أحد خاصة ابن عرفة - الناس بأخذ السلاح والمسير إلى أبي بكر لقتاله. ولما نشبت الحرب استغلها العجم فدخلوا فيها حفاظا على مصالحهم. وسرعان ما قاتل الجند العرب والعجم فقتلوا منهم الكثير⁴⁷⁴.

اعتزل أبو اليقظان الفريقين، وانتقل إلى عدوة نفوسة. أما الإمام أبو بكر فقد ظل في داره لا يحرك ساكنا. أما نفوسة فضلت هي الأخرى البقاء بعيدة عن الأحداث تتربص تطور الأمور فلم تشارك في القتال. وعندما وقعت حربة بجوار درب النفوسيين الذي كان ميدانا للقتال، واستولت العرب والجند على الدرب - وكان أغلبهم للعجم وبعضه لنفوسة - انضمت هذه الأخيرة إلى العجم وتمكنت من استمالة أبي اليقظان والرستمية، ومالت الكفة إلى هذا التحالف الجديد والذي تمكن من دفع العرب والجند إلى أطراف مدينتهم، والاستيلاء على أكثرها، ثم حدثت عدة وقائع منها موقعة «قنطرة الدمستس»، و«قنطرة سليس». كانت الغلبة فيها لنفوسة والعجم⁴⁷⁵.

472 - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص72.

473 - المصدر السابق، ص75-77.

474 - نفسه، ص81-78.

475 - نفسه، ص81-82.

فارس الواصلية وابن رئيسهم يُظهر للجميع من أنواع الفروسية والشجاعة. كما خرج أيوب بن العباس هو الآخر إلى الميدان يستعرض قوته كما جرت العادة في المعارك⁴⁶⁷. وصال وجال في الميدان ثم هجم على خصمه فقتله، والتحم الفريقان. وعظم التقتيل، وكان بطلا هذه المعركة أفلاح بن عبد الوهاب، وأيوب بن العباس. وانتهت المعركة بانهزام الواصلية حيث ولوا الأدبار، واستسلموا وأقروا الطاعة التامة للإمامة. وعاد الإمام إلى حاضرة ملكه ظافرا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يبق من المعتزلة إلا العدد القليل⁴⁶⁸ فمنهم من بقي تحت الحكم الرستمي، ومنهم من كون إمارة مثل إمارة إيزرج⁴⁶⁹ قرب تاهرت، ومنهم من غادر المنطقة وأجّه إلى المغرب الأقصى أين التفوا حول إسحق بن محمد الأوربي⁴⁷⁰.

وتجدد الإشارة إلى أن نفوذ المذهب المعتزلي ظل موجودا في أحواز المدينة، فابن خلدون يقول: «ولى عبد الوهاب ابنه ميمون وكان رأس الإباضية، والصفرية، والواصلية، وكان أتباعه من الواصلية وحدهم ثلاثين ألف ظواغن ساكنين بالخيام»⁴⁷¹. ودام هدوء الواصلية إلى غاية سقوط تاهرت سنة 296هـ (909م). وإذا كان باب الحرب قد أغلق فإن باب المناظرة قد ظل مفتوحا نظرا لما عرفته الدولة الرستمية من تسامح وحرية التعبير؟

وما سبق يتضح أن نفوسة قد لعبت دورا كبيرا في دعم الإمامة الرستمية، سواء في الميدان العسكري، أو في الميدان العلمي، خاصة وأن الدولة لا تملك جيشا نظاميا مما جعلها عرضة للعديد من المتاعب. كما يمكن القول بأن موقف الإمامة أصبح مهزوزا هشا، وأصبحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد الحركات المناوئة، وراحت كل مرة تستنجد بنفوسة في أبسط الأمور، ولاشك أن هذا الضعف كان هو السبب في تعجيل الإمامة في إقامة الصلح مع الأغالبة، وتوثيق علاقاتها مع بني مدرار والأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب الأقصى. وبذلك ظلت علاقاتها مع هذه الدول تميزها سياسة حسن الجوار. وانطلاقا من كل هذا فلا نستغرب عدم تمكن الدولة من مؤازرة

467 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص60-62؛ الباروني: المرجع السابق، ص124.

468 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص62؛ الباروني: المرجع السابق، ص125؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، مج2، ص328-329.

469 - هي إمارة تقع بين تلمسان وتاهرت تقع إلى الغرب من إمارة محمد بن مسالة، يقول اليعقوبي: «ومن مدينة تاهرت... إلى ملكة رجل من هواره يقال له ابن مسالة الإباضي... ثم من ملكة ابن مسالة الهواري إلى ملكة بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن أيضا سوى المملكة التي ذكرناها وهي مدينة مدكرة ومسكنهم في المدينة العظمى التي يقال لها تمطلاس وأهل هذه المملكة قوم من بطون البربر... وأكثرهم... بنو مطماطة... ولهم في ملكتهم مدينة عظيمة يقال لها إيزرج». ينظر: صفة المغرب، ص17.

470 - الحريري: الدولة الرستمية، ص122؛ محمد بن تاويت، دولة الرستميين، هامش ص10.

471 - ينظر: العبر، مج6، ص248.

وكانت للمتقاتلين موقعة أخرى تعرف بـ «يوم الرد المعوج». وفيها أوثقت نفوسة أرجل رجالها ليثبتوا في الحرب ولا يدبر أحد. وبعد قتال شديد مالت الكفة إلى العرب. والجنود حتى أبعدهم عن المدينة. فتحصنت نفوسة والعجم والرستمية في عدوتها المعروفة «بعدوة نفوسة»⁴⁷⁶.

وعلى الرغم من ذلك لم يصمدوا طويلا حيث تفرقوا في أقاصي البلاد. فنزلت العجم في موضع يسمى «تنبغيلت». يبعد عن المدينة بمرحلتين. أما الرستمية فقد التحقوا بموضع يعرف بـ «إسكدال». وأما نفوسة فقد نزلت بقلعة منيعة تسمى باسمها. وفي هذه الظروف استغل محمد بن مسالة⁴⁷⁷ خروج القبائل من تاهرت فقدم إليها.

ولما حدث خلاف بين هواره ولواتة لجأت هذه الأخيرة مرغمة إلى حصنها المعروف باسمها. وأرسلت إلى أبي اليقظان ليلتحق بها. فأنزله بجوارها في موضع يسمى «تسلونت». كما التحق به شيعته من تاهرت. وصارت الإمامة لأبي اليقظان خاصة وأن الإباضية وفدوا إليه من كل الجهات. وألغى ذكر أبي بكر ومحمد بن مسالة. حاول أبو اليقظان الاستيلاء على تاهرت ولكن دون جدوى. حتى إن الحرب دامت سبع سنوات. ولذلك استنجد بنفوسة وارحلت مجموعة إلى غرب المدينة. واقترحت نفوسة على أبي اليقظان مراسلة سكان المدينة من أهل الدعوة ليطلب منهم الدخول في الطاعة. فإن أبوا فعند ذلك يقتحمونها ثانية. وعادت الرسل تبلغ نفوسة بأن الناس كرهت الحرب وأنهم يريدون الصلح على «أن لا يتبع أحد بدم ولا مال»⁴⁷⁸. ولما أعلمت نفوسة أبا اليقظان بذلك أعطاهم العهود في اجتماع تم بين أهل المدينة وعسكر أبي اليقظان. وعندئذ أرخل الإمام ونزل قلعة نفوسة. وضرب سرادقه في انتظار إتمام بناء داره التي تهدمت⁴⁷⁹. وهكذا استقرت الأوضاع في تاهرت وتمكنت نفوسة من إعادة الطمأنينة والسلم وهدأت الأمور إلى أن توفي أبو اليقظان سنة 281هـ (894م).

وتكشف لنا هذه الفتنة مرة أخرى حالة الضعف التي بلغتها الدولة الرستمية. وأصبحت هذه المرحلة تتسم بالقلقل. والفتن. والصراع القبلي. مما أدى إلى دخول البلاد

476 - نفسه، ص83.

477 - هو أحد الزعماء الذين كونوا إمارة في ضواحي تاهرت في عهد الإمام عبد الوهاب بعد الخلاف الذي نشب بين هذا الأخير وبين الأوس. وإذا كان ابن الصغير لا يعطينا معلومات كافية حول موقع الإمارة ومناطق نفوذها فإن اليعقوبي يذكر بأن الإمارة كانت في أرباض المدينة وتضم مدينتين الأولى تسمى يلل والثانية تسمى «الجبل» وهذا الجبل يبعد اليوم بـ 19 كلم جنوب مدينة هلل (بلل) الواقعة جنوب شرق مستغانم. أما البكري فيسمي هذا الموضوع بقلعة هواره أو تاسقذالت. ينظر: اليعقوبي: صفة المغرب، ص17؛ البكري: المغرب ص69.

478 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص87.

479 - نفسه، ص87.

في حرب أهلية. ونلاحظ مرة أخرى أن نفوسة كان لها الفضل في مؤازرة الأئمة وإعادة الاستقرار إلى المدينة.

3 - نفوسة وفتنة محمد بن رياح ومحمد بن حماد:

وقعت هذه الفتنة في إمامة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م). عندما قام هذا الأخير بإخراجهما من المدينة. ذلك أنهما اقترحا عليه مرة من المرات اغتيال والده. ليصير الأمر إليه عندما اشتكى منه. وبلغ أبا حاتم بأنهما قالا الكلام نفسه لمشائخ المدينة ووجوهها. وظلا في منفاهما في موضع يسمى «المثلث»⁴⁸⁰. على بعد أميال من تاهرت يبعثون الرسل إليها يتهمون الإمام بأنه أخرجهم دون جناية. واتفق إخوانهم في المدينة على استدعائهما وإدخالهما إلى المدينة رغم إرادة الإمام. فلما دخلا كبر الناس ما أفرغ الإمام. ويبدو أن عددا كبيرا من التيهرتيين كانوا متعاطفين معهما إلى درجة أن أبا حاتم جمع قومه وأهل بيته للنظر في هذا الأمر. وتذكر المصادر أنهم اقترحوا عليه الخروج إلى حصنهم المسمى بـ «تماليت»⁴⁸¹ في طرف لواتة. والاتصال بهذه القبيلة وغيرها من القبائل. فإن ناصرهم أوجب على الإمام اللحاق بهم. وخرجت الرستمية إلى الحصن المذكور. والتحقت كل من العجم ونفوسة بحصنها. ثم جمع أبو حاتم قواته وهاجم المدينة من ثلاثة مواضع من القبلة. والمشرق. والمغرب. تولت نفوسة الزحف من المغرب. والعجم وصنهاجة من المشرق. والإمام والرستمية (السمحية) ولواتة من القبلة. واشتعلت الحرب مما جعل سكان المدينة يتصلون بيعقوب بن أفلاح لعقد الولاية له. لأنهم رأوا بأن الإباضية لا يكفون عن قتالهم ما لم يكن عندهم رئيس إباضي من الرستميين⁴⁸².

وبمجرد تولية الولاية انقسمت جموع الإباضية حيث انضمت إليه جماعة من لواتة. وظلت الحرب مستمرة بين الأخوين. حيث أمر يعقوب بإغلاق أبواب المدينة إلا بابا واحدا كان يقاتل منه. ولما انهزم أبو حاتم حين حاول الهجوم غرة على الباب الشرقي انصرف عنه أحد كبار مساعديه وهو الذي تسميه المصادر «وانودين». وبذلك ضعفت الحرب. ورغب الناس في السلم. فطلبوا من أبي يعقوب المراتي أن يصلح بين الأخوة الأعداء. وتم الاتفاق على أن يختار كل طرف ممثلا له لعقد الهدنة. ولما التقوا في اليوم المحدد اتفقوا

480 - لا تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى موقع هذا الموضع. ويبدو أنه لا يبعد عن تاهرت.

481 - لعلها «تمالنت» التي أشار إليها ابن حوقل. عندما تحدث عن مراحل الطريق الذي يربط فاس بمدينة المسيلة. ينظر: صورة الأرض، ص87-88.

482 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص106-109.

على توقيف القتال وتوقيف أبي حاتم ويعقوب عن النظر لمدة أربعة أشهر حتى تعود الطمأنينة إلى الناس. ويتمكنوا من قضاء مآربهم، فقد «قطعت السبل، ونزع من أيد الناس الحرث والنسل»⁴⁸³.

وفي أثناء الهدنة استمال أبو حاتم الناس فمالت قلوبهم إليه، في حين فضل الباقي البقاء مع يعقوب، وتمكن أبو حاتم من الدخول إلى المدينة، بينما خرج يعقوب في قلة إلى زواغة، واستقرت الأمور لأبي حاتم فحاول إصلاح ما أفسدته الحرب فعين القضاة والشرطة وأمن السبل، وشرد قطاع الطرق⁴⁸⁴.

ونلاحظ مما سبق أن النظام الحاكم في تيهرت أصبح هشاً لدرجة أن أعيان البلد لهم من القوة ما يمكنهم من الوقوف ضد إرادة الأئمة. كما يتضح أن تيهرت ما هي إلا مجموعة من الحصون، كل حصن تسكنه قبيلة معينة ترتبط بمجموعة من المصالح، فإن تعارضت يحدث نزاع قبلي وطائفي يصعب على الإمامة التحكم فيه. ومرة أخرى يقدم النفوسيون المقيمين في عدوتهم الدعم العسكري للإمامة بمؤازرتهم لأبي حاتم ومساعدته في استرجاع ملكه رغم انقسام البيت الرستمي على نفسه.

كما نستنتج أنه في هذه المرحلة التي مرت بها الدولة أصبح بمقدور الأعيان والوجهاء تحية إمام واستبداله بآخر. وبدل أن يطرد الإمام ابن رباح وابن حماد ثانية غادر هو المدينة. ويمكننا أن نتساءل قائلين: ألا يعد ذلك انقلاباً؟ وخاصة وأن سكان المدينة اتفقوا على توقيف أبي حاتم ويعقوب عن النظر لمدة أربعة أشهر. ومن كان يشرف على تسيير شؤون الدولة طيلة هذه المدة؟ يبدو أن هذه الفترة اختلط فيها الحابل بالنابل وأصبحت الكلمة العليا لزعماء القبائل وكبار الأعيان. وتحول اهتمام الأئمة إلى الصراعات الضيقة والتصفيات الجسدية، والإيقاع بين القبائل. وفي الأخير نقول إنه للدلالة على قوة الأعيان ونفوذهم يكفي أن صاحب الشرطة في عهد أفلح كان لا يتجرأ على دخول سوق ابن وردة هيبة منه⁴⁸⁵.

4 - نفوسة وتعيين الأئمة:

كانت قبيلة نفوسة تشكل عصبية قوية لها وزنها وثقلها في تاهرت. ورغم أن المصادر لا تقدر عدد النفوسيين المقيمين فيها، إلا أنه يمكن القول بأن أعدادهم كانت كبيرة، فالعدوة التي كانوا يسكنونها والمعروفة باسمهم مشهورة في كتب التاريخ.

483 - المصدر السابق، ص 113.

484 - نفسه، ص 114-116.

485 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 62-63.

ونشير هنا إلى أن التواجد النفوسي في المدينة بدأ مع مرحلة التأسيس. فالباروني يذكر بأنه اجتمع عند عبد الرحمن بن رستم ما يزيد عن ستين عالماً من طرابلس ونفوسة⁴⁸⁶. ولذلك كانت حظى بمرتبة عالية عند الأئمة. فالإمام عبد الوهاب عندما خرج بعساكره لقتال بني أوس، جعل عديله وقائد راحلته من نفوسة⁴⁸⁷. وعندما سافر أبو اليقظان إلى المشرق تولى نفوسي خدمته⁴⁸⁸. وكانت نفوسة معجبة بهذا الإمام حتى إنها اعتمدت عليه في دينها وتحليلها وخرمها، وكان أغلبهم يستأذنه قبل الخروج إلى الحج⁴⁸⁹. ولا غرو إذن أن يتخذوا مجلسه كالمسجد «طائفة يصلون، وطائفة يقرأون الكتاب، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم»⁴⁹⁰. وقد قرب هذا الإمام النفوسيين فكان عيسى بن فرناس - مثلاً - يقابله نصب عينيه في مجلسه⁴⁹¹.

وقد ساعدت قوة نفوسة على أن تكون لها الكلمة الأولى في الدولة، ولذلك سميت «العسكرية» أي أهل العسكر⁴⁹². وبلغت من النفوذ حتى أصبحت تولي الأئمة دون أخذ رأي بقية القبائل. وكان العديد من وجهاء الإباضية يرفض ذلك، حتى إن عبد العزيز بن الأوز نادى بأعلى صوته في السوق: «اللهم سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى»⁴⁹³. وعلى الرغم من ذلك لم يلتفتوا إلى كلامه ولم يولوه أدنى اهتمام. وقد بايعوا أبا بكر بن أفلح بالرغم من إنكار العامة لأن هؤلاء كانوا يطالبون بتطبيق مبدأ الاختيار بشكل عام، أضف إلى ذلك أن أبا بكر بن أفلح لم تكن فيه من الشدة في دينه مقارنة بالأئمة السابقين له⁴⁹⁴.

وما يمكن ملاحظته أن الرستميين تخلوا عن مبدأ هام وهو الشورى، وتحولت الإمامة إلى ملك يتوارثه الآباء، ويعد ذلك خرقاً صارخاً لأهم مبدأ نادى به الإباضية منذ خلافة علي بن أبي طالب، وأصبح مجرد شعار يستغل ليلتف حولهم الموالي والمستضعفين. ونعتقد أن كل الثورات والفتن التي عرفتها تيهرت ما هي إلا تعبيراً عن رفض الرعية

486 - ينظر: الأزهار، ص 44.

487 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 54.

488 - نفسه، ص 64-65.

489 - نفسه، ص 97-98: الباروني: الأزهار، ص 304.

490 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 83.

491 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 92-93.

492 - السابق، ص 44-45.

493 - نفسه، ص 70-71.

494 - نفسه، ص 71.

لهذه الممارسات. ولعل يزيد بن فندين هو أول من تظنن لهذه المسألة عندما تولى عبد الوهاب الإمامة. فأنكر إمامة عبد الوهاب باعتبارها لا تجوز شرعا. ويعبر سكوت البقية عن هذا الخرق وانضمامهم إلى الأئمة تراجعاً كبيراً عن مبادئ المذهب الإباضي التي ناضل من أجلها أبي عبيدة مسلم. وعبد الله بن أباض، وأبي حمزة الشاري. وعبد الله بن طالب الحق. وغيرهم. واتخذت القبائل الإباضية هذا الخرق قاعدة لها في تعيين العمال. وسنرى بأن النفوسيين أنفسهم حصروا ولاية الأقاليم والمدن في الجبل في أسر معينة. وما نلاحظه كذلك هو أنه إذا كان التيهريون اختاروا عبد الرحمن لتولي الإمامة نظراً لعدم وجود عصبية حمية، ويسهل تحييته إذا حاد عن الطريق المستقيم. فإن الأئمة الذين تولوا بعده اعتمدوا أساساً على العصبية للحفاظ على الحكم. وكانت نفوسة إحدى العصبية القوية التي استعان بها الأئمة في الاحتفاظ بالحكم. ونلاحظ كذلك انتشار مظاهر الفساد والجون في البيت الرستمي نفسه. وفي مصالح الدولة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الإباضية في تيهرت حولوا بعد مدة زمنية إلى أقلية. خاصة بعد هجرة العديد من المسلمين إليها. وأصبحت الأقلية هي التي حكم الأغلبية وتفرض عليهم مبادئها السياسية والدينية. وحول المجتمع التيهري إلى فسيفساء يتشكل من المالكية، والواصلية، والصفيرية، والشيعية، والمسيحية من العرب، والبربر، والعجم. وبذلك استحال التعايش بين مختلف القبائل، ومختلف المذاهب، والطوائف.

ونشير في الأخير إلى أن نفوسة وقفت إلى جانب الأئمة في حروبهم مع مختلف القبائل. فشاركت أبا بكر في القضاء على العصيان الذي ترتب عن مقتل محمد بن عرفة. وانضمت إلى أبي حاتم يوسف في صراعه مع أخيه يعقوب بن أفلح. ولذلك فقد حظيت نفوسة باهتمام الأئمة لما كان لها من فضل في انتشار المذهب. وفي إقامة إمامة الظهور. سواء في منطقة طرابلس. أو في المغرب الأوسط. كما كان لها الفضل في الدفاع عن المذهب بواسطة علمائها وشيوخها.

4 - نفوسة وتولي المناصب في الدولة:

كان القضاء من المناصب التي استحوذت عليها نفوسة. فكانت هي التي تشرف على تعيينهم. فقد ذكر ابن الصغير في حديثه عن إمامة أفلح بأنها كانت تلي عقد تقديم القضاة⁴⁹⁵. ويفهم من هذا أنه في حالة عدم تعيين القضاة منها فقبولهم مشروط بموافقتها. فمثلاً عندما أراد أبو اليقظان أن يختار قاض شاور جماعة منها

فأبدوا موافقتهم عندما اقترح أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ⁴⁹⁶. كما أن أفلح شاور الشراة في اختيار من يوليه القضاء. والشراة هم فئة تتكون من شيوخ المذهب. ومن مشائخ تاهرت سواء من الإباضية أو من غير الإباضية. وكانت نفوسة مثلاً بقوة في هذه الفئة. وتذكر المصادر أن الشراة اختاروا محكم الهواري لتولي هذا المنصب. رغم حفظ الإمام قائلاً: «ويحكم دعوتهم إلى رجل وصفتهم في ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه»⁴⁹⁷. وتم استدعاء محكم من جبل أوراس. وتولى هذا المنصب وحكم بالعدل فلم يميز بين أبي العباس أخ أفلح. وبين خصمه عندما مثلاً أمامه للحكم في نزاع حول قطعة أرضية. وقد أعجب بذلك وجوه الإباضية وسروا بعدالته⁴⁹⁸. وهذا يدل على أن القاضي كان يتمتع باستقلالية في فض النزاعات. فلم يكن الأئمة يتدخلون في عمل القضاء. فعلى الرغم من أن أبا العباس اشتكى إلى أخيه من معاملة محكم الهواري له إلا أن هذا الأخير أقر بأن ما فعله هو الصواب. والحق أولى من أن يؤثر⁴⁹⁹.

كما تولت نفوسة الإشراف على بيت المال. فالمصادر تذكر أن أبا اليقظان ولى على بيت ماله رجلاً من نفوسة. كما تولت مهمة الاحتساب وإنكار المنكر في الأسواق. وسخرت نفسها لإصلاح هذه الأسواق. وقمع الفساد الذين استغلوا فترة الحرب الأهلية فأفسدوا وأضروا⁵⁰⁰. وقد أمر أبو اليقظان أهل الحسبة بالمشي في الأسواق. فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة عاقبوه. وإن رأوا إنساناً حمل دابته أكثر مما تطيق أنزلوا حملها وخفقوا عنها. وإن رأوا أوساخاً طلبوا من صاحب المكان أن يكنسه. وكانوا لا يمنعون أحداً من الصلاة في مساجدهم. ولو رأوه رافعا يديه ما عدا المسجد الجامع فإنهم يمنعون من يرفع يديه في الصلاة⁵⁰¹. ونلاحظ أن نفوسة كانت تتولى المناصب الحساسة في الدولة لثقة الأئمة في رجالها وتبجيلهم عن بقية رجال القبائل الأخرى. ولذلك فإننا نشاطر سعد زغلول الرأي حين قال بأن اختيار صاحب بيت المال كان محددًا في نفوسة أو مشروطًا بموافقتها⁵⁰².

496 - نفسه، ص 88.

497 - السابق، ص 57-58.

498 - نفسه، ص 60؛ الشماخي: السير، ص 195.

499 - نفسه، ص 61.

500 - نفسه، ص 88؛ الشماخي: المصدر السابق، ص 221.

501 - ابن الصغير: المصدر نفسه والصفحة ذاتها؛ الباروني: الأزهار، ص 298.

502 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 366.

495 - المصدر السابق، ص 63.